
رواية
السامري
كش ملك - الجزء الثالث
أحمد شوقي مبارك
دار اكتب
ساحر الكتب
www.sa7eralkutub.com

كِشْ مَلِك
السَّامِرِيّ

كِشْ مَلِك

ج٣

السَّامِرِيّ رواية

أحمد شوقي مبارك

تصميم الغلاف: أحمد فرج

تدقيق لغوي: خالد رجب عواد

رقم الإيداع: ٢٨٧٤ / ٢٠١٥

I.S.B.N: ٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٣٥٥-٢

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة: ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام: يحيى هاشم

هاتف: ٠١١٤٤٥٥٢٥٥٧ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

E – mail: daroktob١@yahoo.com

Facebook: دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٦م



كش ملك

السَّامِرِيّ

أحمد شوقي مبارك

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

لا أذكرُ يومها إلا أنني رأيتُ وميضًا يمرُّ فوقي مُتقطِّعًا، ومَرْقدٌ ينتفِضُ كأنه يَلْفِظُني وحركة غير متزنةٍ وصرخة امْرُئٍ أعرفُه، وكيانات تطوفُ حولي أعلمُ أنهم يُحاولون التواصُلَ معي بهَمْهَمَةٍ غير مفهومة، أو أنا كنتُ العاجز عن نَيلِ مَغَازي همساتِهم.

تلاشت الأصواتُ واستقرَّ الفِراشُ، وساد صَمْتٌ وظلامٌ دامِس.

التَّمهيد

المنوفية..

١٩٤٥ ميلاديًّا..

شهقت داليا بصوتٍ مُرتفعٍ، فتردَّد صدى ذُعْرُها بالمكان، انتفضَ جسدُها، وتعالت ضرباتُ قَلبِها، ففاضَ بما فيه من خوفٍ وفَزَعٍ مُنتشرًا بأنحاء جسدِها كافة، تحاول النهوض من مَضجعِها، فتجِدُ أطرافَها مُقيَّدة بأعمدة الفِراش الخشبية، فتتراجَعُ عن الفكرة، وهي تحاولُ – باجتهادٍ إيجاد بديل لها – تحاول الصراخ فيخرج صوتُها مكتومًا. تحاول البحث عن المساعدة حولها فلا تجد سوى العَتَمة والظَلام، تحاولُ التخلُّصَ من قُيودِها فتفشلُ وتجرحُ رُسغَها من خُشونة الأربطة الصوفية، وظَهْرَها من الثنايا الحادة لفِراشها الخشبي، تُكرِّرُ مُحاولةَ الصُّراخ، فتأبى حنجرتُها من جديد الانصياع لها، فتتوسَّل باكيةً..

– "سيدى.. آآآمه.. آبوي.."

لم تحصل على إجابة قط، فقط صوت ضعيف لحركة كيان غير مرئيٍّ داخل تلك الظلمة الكالحة، خُيِّلَ إليها شابٌّ يطير فوقها، فلم تصدق ما تراه للحظات الأولى، شعرت أنها تتوهَّم أنه يصرُخُ أو يبكي

أو كلاهما ربما، فانتهى بها الحال محاولةً التوسُّلَ إليه، ولكنه سرعان ما تلاشى وذابَ في الهواء.

–"آمه؟!"

لا إجابة سوى خُطواتٍ ثابتةٍ وضرباتِ عصا، تُكرِّرُ داليا..

–"آبوى؟!.."

يتعالى الصوت تدريجيًّا، ودقات العصا تقتربُ منها أكثر، فتنتفض ذُعْرًا، وتتساءل في خوفٍ بصوت بكَّاء..

–"سيدي؟!"

تقتربُ الخُطواتُ أكثرَ فأكثر..

–"سيدي؟!"

تصرخُ داليا بصوتٍ مُرتفعٍ حينما ترى ذلك العجوز في عقده السادس ذي الجسد الهزيل والبشرة السمراء المتجعدة، وعروقه البارزة المنتشرة في كامل جسده العاري نصفه العلوي، كان يمسك خنجرًا وبيده الأخرى كتابًا ذا غِلافٍ من جُلود حيوان ما. يُهَمْهِمُ بكلماتٍ غير مسموعة فتصرخ مجددًا داليا حينما تلمح أسنانَه الصفراء غير المنتظمة الممتلئة بالفجوات المُظلمة..

–"سيدى صُهيب؟! فُكني أرجوك".

يُشهِرُ خِنجره في الهواء، ويُلقي الكتاب أرضًا، ويُمسك الخِنجر بكلتا يديه، ويُغمِضُ عينيه مُهَمْهِمًا بالكلمات نفسها غير المسموعة، ينتفضُ جسدُه بحماسةٍ، وجسدُها برُعبٍ، ترى النَّصْلَ وهو يتجه نحو صدرِها، تعلمُ ما ينوي فِعْلَه، فتحاول تكذيب نفسِها، تلعن داخلها ذلك اليوم الذي قررت فيه أمُّها اتِّباعَ ذلك الساحر، تلعن فيه الزواج كله، ومَن سَحَرَ لها ليتأخَّر قُدومِ فارسِها، أخبروها أن مع ذلك العجوز الحل الأبديَّ لعُقدتِها، فانصاعت لهم بعدما ضاقت بها السُّبُلُ في العيش مع أبيها قاسي القلب.

يهبط صُهيب بخِنجره مُخترقًا قفصَها الصَّدري لتنفجر نافورة دمويةً من قلبِها، ويشهق بصوتٍ مرتفعٍ فاقدًا توازنه ليسقط على ركبتيه ساحبًا معه الخنجر المُلطخ بدماء العذراء، وأمسكَ بالكتاب من جديدٍ، ثم مَسَحَ بقايا دِماءِ قُربانه بجِلْدِ غِلاف الكتاب، وسَقَطَ أرضًا فاقدًا الوعيَ.

مرَّت ساعةٌ أو أكثر قليلًا والأمُّ بالخارج تنتظرُ أمام بيت الإمام صُهيب أو سيدنا صُهيب كما يُسمِّيه جميعُ أهلِ القرية، تنتظرُ خُروجَ ابنتِها داليا باشَّةَ الوجْهِ، وقد تلاشت عُقدتُها، فقد ظلَّت طَوال الدقائق الماضية تُفكِّرُ في عريس ابنتِها مَنْ سيكون من أهلِ البلدة، هل سيكون من أهل (العَلام)-كما يقولون؟ أم سيكون ضابطًا أو حتى جُنديًّا في الجيش المناضل؟ أم سيكون شابًّا مُتدينًا حافظًا للقُرآن؟ أو

فَلَّاحًا يَرْعى أرض أبيه التي سيرثُها من بعده بكل تأكيد؟ طال الوقتُ أكثر من اللازم فانتابها قَلَقٌ، فهمست لخادمِ صُهيب الأصلع ذي السبعة عُقودٍ المدعو واصف..

-"هو دايمًا بيتأخر كده يا شيخنا؟!"

لم يُجِبْها في البداية كأنه لم يسمعها أو سمعها وتجاهَلَ الأمر، كان واصف سريع الملل، ضَيِّق الصَّبر، كان يعلم دائمًا أن جميع الزائرين لا يتحملون عناء سُويعاتٍ قليلة في سبيل وَضْعِ كلمة النهاية لمشكلتهم رغم قضائهم شهورًا عدةً في السَّعي خلف حلول أخرى لدى الأطباء والحُكماء..

-"شيخ واصف؟"

انْتَبَهَ لها ورَمَقَها بملل، فكرَّرت سؤالها

-"هو دايمًا بيتأخر كده؟!"

دون إجابة انسحب واصف من أمامها جاذبًا عصاه ليتوَكَّأ عليها وهبَّ واقفًا بصعوبة متألمًا، فعضَّ على شفتيه ليكتم صوتَ آلامِه، وطَرَقَ الباب ثلاث مراتٍ، ثم همس بصوتٍ سمعتهُ السيدة..

-"سلام ورحمة يا زوار بني القماقم".

فَتَحَ البابَ وتسلَّل نحو الداخل، وسدَّ ثغرتَه أمام عيني الأم المُتلهفة لرؤية البشارة، لحظاتٍ وخَرَج واصف مُهروِلًا نحو الخارج

حاملًا في يده الكتاب ذا الغلاف الجلدي الملطخ بدماء العذراء، وأخَذَ يُهرْوِلُ في الشوارِع صارخًا كالمجنون..

-"صُهيب باع نفسه لبني القماقم.. صُهيب باع نفسه لبني القماقم، الشيطان راجع!"

حاصرت الأم حالة من الذُّعر من المشهد، ودفعت الباب بقوة لترى ابنتها جثة هامدةً والدماء تُغطي صدرَها بينما لا أثر أبدًا للعجوز صُهيب!

***

فاطمة ..

-"بلال جيه البلد هنا من سنة كده أيام ما كان البيت ده حتة أرض، بس حتة الأرض دي كان الكلام عنها مالي البلد إن كان فيه ساحر قديم عايش في المكان ده"

من كتاب لعنة جسام

***

نور الدين..

-"من ساعة حادثة أخويا وأبويا معيشنا في سجن مش قادر يفهم إن الموت عارف عنوان سريري برضه".

من كتاب لعنة جسام

***

رمزي..

–"أنا لم أفعل شيئًا.. أنا فعلت كل ما أمرت به".

من كتاب الثالوث

***

بلال..

–"نور لم يكن سوى عسكري تضحية لجسام داخل رقعة شطرنج!"

من كتاب الثالوث

***

ابن بوران الفارسي..

–"هناك، في جزيرة غير معلومةٍ، وسط مياه البحر العميقة يوجد نَصريُنا الوحيد.."

من كتاب الثالوث

***

جسام..

–"اسجد.."

من كتاب لعنة جسام

***

معبد الكرنك..

في طريق الكِباش اصطفَّت كيانات عسكرية من قبيلة الجان الأحمر، كانوا حاملين خلف ظهورهم سيوفًا فضية لامعة، كان لهم جميعًا نفس البشرة السوداء والملامح الجامدة القاسية، ونفس الأحجام القصيرة نوعًا ما والحدقات الحمراء وأنياب بارزة لكل منهم، كان وقتها قد انتصف الليلُ، فعمَّ الظلامُ المكان، فأشارَ سيدُهم لمواقد النيران في كل مكان لتشتعلَ، فكانت تحت طاعتِه تنفذ وتهبُّ النيران من تِلقاء نفسها في المشاعل لتبثَّ نوعًا هادئًا من الضوء بالمكان.

يتحرَّك قائدهم وله نفس الهيئة تقريبًا عدا أنَّ سيفه كان به ثنايا ذهبية مميزة يصل لنهاية طريق الكباش، حيث جسام أمام رُقعة الشطرنج المُعدة لبدء مباراة مهمة يعلم جسام أنها الأخيرة ينظرُ لها القائد وداخله يتساءل عن سبب إضاعة الوقت في مباراة شطرنج عُلم المنتصر فيها بالفعل، ويرمُقُ الكرسي الفارغ أمام جسام..

–"كل شيء جاهز سيدي، السيد يتابع الأمرَ عن كثبٍ".

–"أخبره أن كل شيءٍ سيكون على ما يُرامُ".

–"حراسنا بالمكان أبلغوني أن مراش بن بوران الفارسي لحظات وسيصل.."

أومأ جسام دون إجابة فانسحبَ القائد دون كلماتٍ أخرى خطوتين نحو الخلف، ولكنه توقَّفَ في الحال حينما بَرَزَ في الجهة الأخرى من الطريق شاب في بَدْلَة سوداء أنيقة، ما إن شاهَدَهُ جميعُ الحراس حتى هبُّوا راكعين له، كما أمرهم القائد تنفيذًا لرغبة جسام غير المفهومة لهم جميعًا. ابن بوران يتحرك بينهم، وعلى الجانبين حُراس من عالم آخر راكعين له كنوعٍ من الاحترام أو السخرية أو كليهما معًا. يَرمُقهم ابن بوران، في تجاهُلٍ ثم ينظرُ لنهاية الطريقِ حيث جسام ورُقعة الشطرنج واللِّقاء الخِتامي في حياة أحدهم أو حياة كليهما! ابتسم جسام لرؤية ابن بوران للمرة التي يعلم أنها ستكون الأخيرة بلا شكٍّ، يعلم أن الحياة ضاقت على كليهما، وأنه آن الأوان لحسم صراعهما بصورة أبدية..

حتى ابن بوران كان يعلم جيدًا أن تلك المرة ستكون مُختلفةً كثيرًا، يعلم أن هناك شيئًا قام به جسام في الأيام الأخيرة، ولكنه ما زال يجهل ذلك الأمر..

قال جسام بغرور..

-"كنتُ أعلمُ أنك ستأتي.. كنتُ أعلمُ أنك لن ترفض دعوتي أبدًا".

وَقَفَ ابن بوران يرمُقُ الحراس مُجدَّدًا، وهم يهبون بالنُّهوض، ثم رَمَقَ القائد الذي ركع لحظاتٍ أمامه، ثم نَهَضَ مُنسحبًا من المكان، نَظَرَ ابن بوران لرُقعة الشطرنج، وبعدها لجسام..

-"امتلكتَ القوة إذن الآن.. الآن فهمتُ سبب اختفائك الأيام الماضية".

أمسك جسام بإحدى قِطع الشطرنج يُداعِبُها بين أصابعه وهَمْهَمَ..

-"إقناع مملكة الجن الأحمر بمنحى الجيش لم يكن بالأمر اليسير صدقني.. لقد دفعتُ لهم الكثير والكثير لذلك الأمر، منحتهم الأقرب لقلبي قُربانًا لهم، منحتُهم عهدًا أنني لو أخفقتُ فيه سأكونُ أسيرَهم أبد الدهر، أسْرِي هذه المرة لن أتحرَّرَ منه أبدًا.. نعم ابن بوران أنا أمتلِكُ القوة، أمتلِكُ الجيش.. ولكن ذلك الأمر أقلُّ المُفاجآت شأنًا هذه الليلة".

توقَّفَ ابن بوران لحظاتٍ يتذكر تلك المملكة وانصياعها كخدَّام لفرعون مصر قديمًا، ثم تحالفهم مع العقارب في الهجوم الذي تَمَّ على القصر قديمًا، فانغمسَ أكثر مُتذكرًا لميس وخيانتها وهي تمنحه سُمَّ ثعبان الفرعون، وبعدها أرْقَدُوه داخل القبر المسحور طوال القرون الماضية، فقطعَ جسام حَبْلَ أفكاره..

-"الماضي الأليم يا صديقي، كانت خائنة وكلفتنا الكثير، كُنا أسرى في مقبرة المصريين.. يا ليتهم قتلونا يومَها، لا أفهم لماذا لم يفعلوا ذلك؟! كانوا جبابرة أرادوا البقاء لكلينا إلى الأبد، أرادوا تعذيبَنا بالخُلود ونَجحوا في ذلك.."

كشريط تسجيليٍّ يعرضُ أمامه لمحاتٍ من الماضي عن تلك الحقبة التي لن ينساها أبدًا مهما يَطُلْ عُمره أو دام خُلوده..

***

لميس..

-"اشرب هذا.. ثِق بي".

من كتاب الثالوث

***

ابن بوران..

-"يجبُ أن يكون هذا القصر مَقبرة عَقارِب الفرعون..".

من كتاب الثالوث

***

جسام

-"العدل أن إنصافك في كل شيء ستملكه.."

***

أومأ ابن بوران مُوافِقًا حديث جسام..

-"بالفعل نجحوا في ذلك.. كنتُ أحسبُ الخلود أعظمَ شيءٍ حصلتُ عليه، ولكن الفرعونَ وجنودهَ قلبوا نعمتي العُظمى لأشَرِّ نِقمة، أنْدَمُ كثيرًا على اليوم الذي قمتُ فيه بتنفيذ طقوس موسى السامري للخلود.."

ضَحِكَ ابن بوران ساخرًا، بعدها أردفَ..

-"أزهقتَ أرواح العَشرات مُقابِلَ نَيْلِ البقاء الأبدي، ليتمَّ أسري به داخل قبورهم لألف عام".

ضحك جسام..

-"لا تقسُ على نفسك.. أما زالتَ تتذكَّرُ كل تلك التفاصيل؟"

ردَّ بسخريةٍ مُجددًا ابن بوران..

-"ومن لا ينسى؟!"

نظر ابن بوران نحو القطعة التي يحملُها جسام بين أصبعيه، فكان واضحًا عليها أثرُ الزمان، فخطفته منظرها، وتذكَّرَ المرة الأخيرة التي

لعبا فيها كلاهما تلك اللعبة قبل الأسر بأسابيع قليلة، فلاحَظَ جسام نظراتِ خَصمه..

-"أنا مَنْ قُمتُ بنحت كل قِطع هذه اللُّعبة، طالما حاولت الحفاظ عليها والاهتمام بها قِطعةً قِطعةً، الشطرنج ليست مجرد لُعبة، الشطرنج هي مُلخَّص الحياة كما رَسَمَه أحكمُ الحكماء، ابحث عن الانسان ستجده يُمثِّلُ إحدى تلك القِطع، أعلمُ أنها تُذكِّرُك بالهزيمة المؤلمة، وتُذكِّرُك بقبضة العقارب، خيانة لميس أو عاهرة المعبد، تذكرك بالهروب خلف موسى بن عمران وسعي موسى السامري نحو الخلود، تذكرك بمن صَنَعْته خادمًا لك فصارَ سيدَك يوم حررتني منك، لن أُنكر أنك علمتني الكثير، وجعلتني ألتهِمُ من تمردك وخبرتك حتى اشتدت ضُلوعي وصار كياني لا يحتاج أحدًا معه. بما أننا على مشارف النهاية -وأنت تعلم- ألا تريد اللعب للمرة الأخيرة؟!"

نظر ابن بوران للكرسي الفارغ وهو يسمع عرض جسام لمباراة شطرنج أخيرة تجمعهم، ثم رَمَقَ الحُرَّاس من جديدٍ، وقال شارعًا في الجلوس..

-"ظننتُ أن وقت اللَّعب قد انتهى.."

تقدَّمَ قائدُ الحرس من جديد حاملًا صينة فِضية تحوي كأسين من الزجاج، ووضع إحداهما أمام ابن بوران والأخرى أمام جسام، ثم انحنى مُنسحبًا من المكان سريعًا..

أشار جسام لكأس ابن بوران قائلًا..

-"أحتفظُ لك بذلك المشروب منذ ليلة الهجوم.. على أمل أننا سنعود مُجدَّدًا".

ضحك جسام وأردف..

-"حتى الأمل تعلَّمتُه منك، تعلمتُه من إصرارك وأنت تبحثُ عن سِرِّ الخلود".

أمسك ابن بوران الكأس، فاخترقت رائحتُه أنفه لتداعبه ذكرى قديمة، ولميس تصرخ مانحةً إياه السُّمَّ ليشربَهُ، فهَمَسَ دون أن يسمعَه جسام..

-"رائحة الماضي".

قال جسام وهو يمسك إحدى قِطع الجنود من جيشِه شارعًا في تحريكِه..

- "أمنحُك الفرصة الأخيرة لنبذ خلافتِنا وتناسي كراهيتنا والتحالُف من جديد، كُلٌّ منا كان يكمل الآخر، ولكن بقاءك معناه أنني سأكون السائد، وأعدُك أن رأيك سيكون ضِمْنَ خُططي وأفكاري، ولكنك ستظلُّ المتنحي والجانب الخَفيّ لي، ستمهد لي التشكل بالسُّهولة دون خوفٍ من اختراق المعاهدات، وسأضمنُ لك البقاءَ والقوة.."

رَشَفَ ابن بوران من كأسِه، ووضعها جانبًا، ثم حَرَّكَ جنديًّا خطوتين للأمام..

-"أنا مَنْ سيلعبُ أولًا.."

أومأ جسام في أسفٍ بعدها حَرَّكَ الجندي الذي يمسك به..

-"كما تشاء.."

أسنَدَ ظهرَه نحو الخلف، وبرزت على ملامحِه ابتسامةٌ خبيثةٌ وأضافَ..

-"أُريدُ فقط إراحة ضميري نحو ما فعلتُه بك، وأنت بالفعل لم تخذلني وتريد أن تكون نِدًّا لي حتى الرَّمَقَ الأخير.."

***

التحرير

(١)

تجمَّعَ أهلُ القرية في المشهد المُطابق لثنايا العصور الوسطى لحرق إخوان الشيطان حسبما أقنعتْهُم سارة بمساعدةِ خادِمها همَّان بأن نور الدين وعمر هما القادِمان لتقديمهم جميعًا قَرابين لشيطان الساحر القديم حسب الأسطورة التي سبقت، وقَصَّتها عليها فاطمة ابنة الشيخ حسن الذي أُزهقت روحه ضحيةَ لعنة بلال بالمكان.

كان أهل القرية قد أتمُّوا تقييد عمر ونور الدين بالعواميد الخشبية وسط الشارع، الجميع يحمل شُعلات النار، ينتظر الثأر لمقتل محمود ذلك الشاب الذي تعرَّض للحرق الذاتي دون أن يعلموا أن سارة هي من أحرقَتْهُ لأنه انتهك خُصوصيتَها، وقَرَّر تصويرها عاريةً اثناء قيامها بطقوسِها لتحضير همَّان باستخدام أحجار القبور.

تقدَّمت سارة لتهمسَ في أذن نور بشكلٍ ساخر أن يُعلن كُفرَه فرَفَضَ فابتسمت وتراجعت، وصرَّح أحدُهما أن سارة من حقها أن تنالَ شَرَفَ إحراق هذين الشخصين، فلم تتردَّدْ، وأخذت شُعلة النار، وأطلقَ أحدُهما دلو بنزين على جسديهما المقيدين، وهبطت سارة على ركبتيها، وبدأت بإشعال النار ليظهر فجأة دون سابق إنذار ابن بوران الفارسي بصُحبة مُلثَّمٍ آخر في إحدى البنايات المقابلة كل منهم يحمل قوسًا وسهمًا ويقوم بالتصويب نحو المشهد، ونور الدين

يترقَّبُ أن ينقذه ابن بوران مجددًا ولا يَشْرَعُ في قَتْلِه كما حاوَلَ من قبل في صورة غير مفهومةٍ، وخَلَّصه من أيدي جسام في صورة غير منطقيةٍ.

انطلق السهم من قوس ابن بوران قاطعًا الهواء ليخترق كتف سارة لتشهق الأخيرةُ بقوةٍ وتسقُطُ معها أرضًا تتألَّم بقوةٍ، بينما أطلقَ المُلَثَّمُ الآخر سهمًا استقرَّ بصدر أحدِ أهالي القرية ليسقط قتيلًا في الحال، يقفز ابن بوران والملثَّم الآخر بثقةٍ وسط الحشد، فيتفرقُ أهل القرية من حولهم في ذُعرٍ من هيئتهم الثابتة المُخيفة، يظهر في الكادر همَّان، فلا يراه سوى ابن بوران الذي بدا للجميع كأنه يُخاطِبُ اللا شيء..

–"همَّان؟!"

تلاشى همَّان وملامحه ممتلئة بالخوف، بينما سارة حاولت تحدِّيَ أَلَمَها، وهشَّمت السَّهمَ المُثبَّتَ في كتفها لتظل رأسه داخل عظمة قَصِّها ونهضت في ألمٍ ووثبتت ناحية ابن بوران الذي سرعان ما التقطَها وألقى بها بعيدًا لتسقُطَ هذه المرة بلا حركةٍ غائبةٍ عن الوعي، حاول أحد الشباب بثَّ الحماسة في الجميع للهجوم على ابن بوران والملثم، ولكن الأخير أسقطه قتيلًا في الحال، فتفرقوا جميعًا مُبتعدين عن المكان مُذعورين في مشهدٍ يُجسِّدُ يوم الحشر العظيم.

تقدَّم ابن بوران نحو نور الدين المقيد..

-"مصطفى؟!.. انت السبب في تحرير جسام!"

لا ينسى نور الدين المفاجأة التي علمها قبل الهجوم بلحظات، عن كون ابن بوران الفارسي بجانبهم طوال الوقت، فقد اتخذ لنفسه شخصية تُدعى مصطفى وهو ابن أحمد رمزي الراحل في مذبحة المقبرة في السنة الأخيرة من القرن الماضي مُستغلًّا أن مصطفى نفسه خارج البلاد منذ سنوات عديدة..

-"صدقني، جسام مش هو الخطر الوحيد حاليًا.."

هبط الملثم أرضًا وأخرجَ من جيبه عُبوةً صغيرةً فَتَحَها، فأخرج منها مسحوقًا أسود بَدَأَ في نثرِهِ على الأرض في شكل نجمة ثُمانيةٍ، وهو يُهَمْهِمُ ببعض الكلمات.

لحظات وتجوفت الأرض نحو الداخل، فكوَّنت فُوهةً كبيرةً من الظلام الكالح، قَفَزَ داخلها الملثمُ، وقَطعَ ابن بوران قُيودَ نور الدين حاملًا إياه بين يديه، وهَبَطَ به خلف الملثم، بينما ظَلَّ عُمر عالقًا مكانَه متابعًا المشهد في حالةٍ من الذُّعر حامدًا ربَّه أن هؤلاء الأغراب لم يحملوه نحو الداخل معهم، وفي نفس الوقت رحل أهل القرية جميعًا عن المكان فُي حالةٍ من الخوف والرُّعبِ، فكان يحاول مُسرعًا فَكَّ قُيودَهُ ليهرب من المكان، فرَمَقَ مُتابعًا صامتًا للمشهد من بعيد، لم يكن يبدو عليه ملامح أنه من أهل القرية، بل كان مصدومًا، وحتى

لم يكن واضحًا عليه أيٌّ ملامح عدائية، فكل ما لمحه عمر على وجه ذلك المتابع أنه خائف من كل ما يحدثُ..

-"أنت؟!"

نَظَرَ جمال يمينًا ويسارًا يبحث عن أحدٍ يُخاطِبُ ذلك المقيد، فلم يجد غيرَه بالمكان، تصلَّب مكانه يُفكِّر في تقدُّمه للمساعدة أم الوقوف أم الرحيل عن هذا المكان بعدما دخل للبيت الملعون إثر حالة الفوضى بالقرية، وأخذَ يَصرخُ داخله لعلَّه يُقابِلُ جسام ويمنحُه عِلاجَ زوجته ريم ..

يعلم جمال قُدرات جسام المتعددة في شفاء المرضى..

فيعلم أنه السَّبب في إعادة بصر جيهان قبل أن تَلْقَى مصيرها كمتهمةٍ بجريمة لم تفعلها قط..

كتاب لعنة جسام

لا يُفكِّر سوى بزوجته المسكينة ريم التي ستنتهي حياتها بين لحظة وأخرى، وجسام التي أعاد بصر جيهان قبل أن يُورِّطَها بإحدى جرائم القتل، كما فعل مع بلال حينما أمره بالسجود له..

-"أنت.. بسرعة أرجوك.."

اندفع هذه المرة جمال دون تفكير وبدأ في فَكِّ قُيود عُمر والأخير متلهف للهروب من المكان..

-"معاك عربية؟!"

أومأ جمال بالإيجاب..

-"طب يلا.."

تردَّدَ جمال فقد حسمَ أمرَه قبل ترك القاهرة، إنه لن يعود الآن إلا حاملًا العلاج مهما يكلفه الأمر، ولكن البيت خالٍ من جسام، ويعلم الآن أن مصير ريم بات محتومًا بالرحيل، وأن السرطان صار على مقربةٍ كبيرةٍ من تحقيق هدفِه الأسمى في حَصْدِ رُوحٍ جديدة..

-"بس.."

قاطَعَه عُمر بسرعةٍ..

-"بس إيه، أيًّا كان سبب وجودك هنا فده وقت مش مناسب.."

انسحب عمر وجمال نحو سيارة الأخير، وأدار مُحرِّكها وتحرَّك مُسرعًا مُبتعدًا عن تلك القرية، كان عمر في حالة من الصدمة مما كان على وشك الحدوث له والفرحة لإنقاذ حياتِه في آخر اللحظات عازمًا على عدم الانخراط في أمرِ ذلك المسمى بجسام مهما يكلفه الأمر، وأنه سيكتفي بهذا القدر لتلك المهمة، كما أنه لا يوجد دليل واحد أنه كان على علمٍ بهروب بلال من تنفيذ حكم الإعدام، إذن الأمر مُنتهٍ، وحتميٌّ بالنسبة لعمر، حتى موقف جيهان وحديث بلال عن التسجيل الذي قام المحفوظ الممثل دليل براءة جيهان الوحيد الموجود في الطابق الرابع في البيت الملعون..

نَسِيَ عمر الأمر بأكملِه أو تنساهُ..

كان كل تفكيره في تلك اللحظة الرحيل فقط الرحيل من ذلك المكان..

أما جمال كان يسيطر عليه حالة من اليأس منذ أول لحظة هَبَطَ بها على أرض القرية، ويرى أهلها يشاركون في حرق اثنين مُدعيين أنهما ساحران، فلا شك أنه سألهم عن بيت ملعون أو شيطان يُدعى جسام أو أي ما ورائيات للطبيعة، سيكون لديهم سبب مقنع جدًّا لإضافة وتدٍ آخر في الأرض وحرق جثة ساحِرٍ آخر..

***

حَرَّكَ جسام جنديًّا آخر من جنوده..

–"يجب أن أعترف أن تدخلك لم يكن في الحُسبان، دائمًا كنتَ تحمي نور الدين حتى ظننتُ كثيرًا أنه آخر نسلك، كثيرًا حاولتَ إقناعي أن المتصل بنا هو نور الدين".

أطاح ابن بوران بأحد جنود جسام..

–"المشكلة لديك أنك تحتقر عدوك، تظن أن جميع الملوك السابقين قبلك كانوا أضعف منك، وأن ما حدث سالفًا لن يتكرر معك، تظن أنك أذكى وأفضل، وأن السابقين كانوا الأغبياء، لا تنظر

لأخطائهم بقدر ما تنظر للحظات ضعفهم وقلة حيلتهم.. هذا ببساطة مُلخَّصُ كل قائد مغرور!"

بثقةٍ ابتسم جسام..

–"ولكنني كما تعلم انتصرتُ بالفعل! أنا ألعبُ معك ليس للتنافُس في معركة، أنا انتصرت فيها بالفعل، أنا ألعب لأتسلى بإخبارك كم أنت كنتَ أحمق وضعيفًا! ألعب معك اليوم لأستمتع بكل نظرة انكسار أراها في عينيك كلما علمتُ بقُرب نهايتِك، ألعبُ معك لأرى روحَك وهي تنسحبُ من جسدك تدريجيًّا."

ابن بوران..

–"لا تتعجل.. المنافسة قد بدأت فقط، ولكن المعركة مستمرة."

جسام..

–"المعركة انتهت بالفعل، ولكنك تصِرُّ على ألا تَرَى ذلك.."

**

ابتعد جمال بالسيارة عن القرية بضعة كيلومترات، وعقلُه لا يرى سوى منظر ريم صلعاء، ودقَّات قَلبِها تتضاءل تدريجيًّا، وهاتفه الذي أغلقه مُؤخَّرًا حتى لا يستقبل المكالمة المتوقعة برحيلها وفراقها بلا

عودة، رغم ما تعرض له عمر في السُّويعات الأخيرة، فإن حالة الشرود لدى جمال كانت أضعاف أضعاف ما لدى عمر..

-"هما ليه كانوا بيعملوا كده؟!"

ظن عمر أن لا إجابة مقنعة يمكنه التفوُّهَ بها أمام ذلك الغريب عن المنطقة..

-"موضوع كبير.."

صمت لحظات يفكر في الكلمات قبل أن يضيف..

-"صدقني مش هتحب تعرفه أو مش هعرف أحكيه، الأمر معقد جدًّا."

حَكَّ جمال رأسه وانتقل من المستوى الثاني للثالث في سيارته وقال..

-"الموضوع له علاقة بجسام."

انتبه عمر أخيرًا لحديث جمال، واندهش كثيرًا أن ذلك الرجل ذكر ذلك الملعون انتابَهُ قشعريرة، وذكريات حرقه تُداعِبُ رأسَه، فلم يتمالك رعشته، فبرزت أمام جمال لتخبره بالإجابة التي وَدَّ أن يعلمَها، حاول عُمر التحدُّث فسبَقَه جمال مُرْدِفًا..

-"أوصله إزاي؟!"

صَعَقه السؤالُ، كان للمرة الأولى يرى فيها عمر باحثًا ومُتتبعًا لجسام، ما دام جسام هو مَنْ يتتبع البشر، أمام إنسان يسعى خلف الشيطان ..

–"توصل لمين؟!.. إنت مستوعب كلامك؟!"

رد جمال..

–"عاوز أقابل جسام، معرفش طريقة التواصل معاه بتبقى إزاي.."

صمت كلاهما لحظات بعدها استمر جمال في التوسُّل..

–"لو تعرف قولي، أرجوك."

ردَّ عمر وما زالت حالة عدم الفهم تُسيطر عليه..

–"إنت لازم تفهم مخاطر طلبك ده.. "

قطع جمال حديثه مجيبًا إياه..

–"فاهم وعارف."

صاح عمر..

–"واخد بالك إننا كنا على وشك أننا نتحرق، جسام وسارة تقريبًا سيطروا على القرية كلها، كل أهل القرية بقوا مغيبين محدش بيفكر، فاكرين إن سارة عندها بركات وبقوا بينفذوا أوامرها بعمى مطلق.. "

ساد الصمت لحظات بين طرفي الحديث وعاد جمال التركيز في طريقه المظلم، وقال دون النظر لعمر مرة أخرى..

-"سارة.. ملاك نهض من الظلم، الطابية"

انتبه عمر للحديث، فحاول فهم الأمر ولكنه يُراجِعُ في الحال مُقنعًا نفسَه أنه ليس مهتمًّا، وأنه انسحب بالكامل من ذلك الأمر، ولكن لسانَه سَبَقَ عقلَه..

-"يعني إيه كلامك؟"

أجابَهُ جمال بكلماتٍ لم تشبع فضوله قط..

-"سارة رمز في جيش جسام.."



***

خطاب كتبه بلال..

-"قال لي جسام ذات مرة، إنني حامي البلاد ذات الدماء الكافرة!"

من كتاب الثالوث

***

أومأ جمال ولم يرد عمر حديثَه، فألحَّ جمال وسأله مجددًا عن كيفية الوصول لجسام فصاح فيه عمر هذه المرة..

–"جسام كان هيحرقنا! ده شيطان أي كان المعلومات الي عندك عنه فهي كدابة أو ناقصة أو ممكن يكون هو الي بعتهالك عشان يفهمك حاجات غلط.. ده مخادع، مهما كنت فاكر نفسك ذكي هو الأذكى، هو دايمًا الكسبان، ده كابوس لو دخلت فيه مش هتخرج منه، أنا حصلي كل ده وعمري ما شوفته. جيهان هتتعدم، بلال هرب، سارة اتجننت، نور اختفي تحت الأرض مع الاتنين الي إنت شوفتهم معرفش تبعه ولا لأ.. "

لم تبدُ على وجه جمال أيَّ مُفاجأة من الحديث، فكان يعلم أغلبه خلال مذكرات بلال وجيهان قد علم عنها الكثير خلال حلقتها الشهيرة التي سبق إذاعتها في التلفاز، أما عن الأسطورة بأكملها فقد استمدَّ أغلبها خلال المخطوطات، وكَتَبَ الأرشيف للتاريخ الفارسي والمصري القديم..

–"لو أنا فاهم صح، يبقى الملثم ده مش تبع جسام، أظن إنه ده مراش بن بوران الفارسي تلميذ موسى السامري وعدو جسام.."

هنا نظر عمر لجمال بذهول وسأله..

–"إنت مين؟! وإيه حكايتك؟!"

في نفس الليلة

تمشي جيهان بين رجال الشرطة نحو تنفيذ حكم الإعدام، تمرُّ بخطوات ثابتة بين اصطفاف طويل من العساكر، تتذكر ومضات كادت أن يمحوها عقلُها من ذاكرتها، تتذكرُ أخاها الذي ظهر من العدم ليموت سريعًا على يدي شخصٍ غريبٍ، وتتحمَّلُ هي القضية لتدفع ثمنًا غاليًا لجريمة لم ترتكِبْها قط! جريمة قتل أخيها التي لم تره سوى مرة وحيدة، تتذكر جسام في حياتها ومنحها بصرها بعدما فقدته بسيارة شابٍّ مُتعجلٍ لا يرى الطرقات أمامه، تتذكر يوسف الذي انتحر ليكمل مِشوار القضية لتصبح بذلك هي المتهمة الوحيدة والجانية التي يرتاحُ ضميرُ القاضي للتخلُّص منها وتنفيذ القصاص فيها.

تلمح جيهان بنهاية الرواق كلمة (غرفة الإعدام)، وتتذكَّرُ سريعًا المشهد الأخير لجسام وطلبه منها أن تعلن الولاء التام بالسجود له، ورفضها لذلك الأمر مهما تكن النتائج، فقد كانت تعلم أن وحل جسام لن ينتهي أبدًا، والنهاية السيئة قادمة لا محالة لها، أوقفها

العساكر أمام الغرفة وبدأ أحدهم في سَرْدِ جريمتها التي لم ترتَكِبْها قط، ولكن عقل جيهان كان شاردًا في تلك اللحظة التي لم تنسها قط قبل أربعة عشر يومًا، يوم جاءها ذلك الغريب لزيارتها..

***

–"إنت مين؟!"

جذبها الشاب من يدها لتجلس أمامه ونَظَرَ لها بحدة..

–"اسمعيني كويس، عشان مش بحب أكرر كلامي أدامك حل واحد عشان تخلصي من إعدامك".

انصاعت له وجلست أمامه وتحول سؤالها من تهكميٍّ عدوانيٍّ آخر لسؤال رجاء واستعطاف..

–"إنت مين؟!"

تجاهل الرد عليها، وأخرج من جيب سترته ورقة صغيرة ومنحها إياها..

–"يوم التنفيذ هتقري العزيمة ديه.."

وأخرجَ عبوة صغيرة من سائل أبيض لزجِ اللون منحها إياها أيضًا وأضاف..

–"تشربي ده نفس اليوم الصبح قبل أذان الفجر.."

أخذته جيهان، ولم تسأله مجددًا عن اسمه، فكانت تعلم أنه لن يخبرها بالمزيد، وهَبَّ بالنهوض خارجًا، تحرَّكَ خطوتين نحو الخارج، وفجأة التفَّ وجيهان تنظر للعبوة وورقة العزيمة..

–"لو نجحتي هيكون ليكي دور في خطتنا ولازم تنفيذه.."

سألته بعدم فهم رغم عدم اهتمامها، فلم تكن تحمل أي فضول للتعرف إلى الخطة المطلوب منها تنفيذها، فهي ستنفذ أي شيء سيُطلب منها، كان كل تفكيرها في فكرة التخلص من الحبل الذي سيلتفُّ حول عُنقها بعد أيام قليلة..

–"خطة إيه؟!"

ردَّ الشابُّ..

–"هنقتل الشيطان!"

لم تتمكن من كتم فضولها هذه المرة..

–"إنت مين؟!"

–"مراش.. أو مصطفى"

تعود للحاضر جيهان وأعوان عشماوي يتسلمونها في عنف يسوقونها نحو منصة الإعدام ينطق الشيخ بدعوتها لتلاوة الشهادة، فتمتمت العزيمة بدلًا منها فبدؤوا في تقييد يديها ورجليها، تستمرُّ في تلاوة العزيمة، وأحدهم يغطي وجهها بغطاء أسود، والآخر يدخل

رأسها بفتحة الحبل الغليظ، تسمع صوت المنصة وهي تفتح من تحتها ليهبط جسدها ودون أن يتهشَّم عُنقها، فتشعر كأن أحدهم يحملها، تسمع الجميع يتلون الشهادة من حولها، الجميع يظنون أنها ميتة، ولكنها ليست كذلك، انسحب طاقم الشرطة، وبقيَ عشماوي ومساعداه بالمكان يتلون النكات والضحكات، وجيهان تحاول الثبات، وكتم أنفاسها على تلك الوضعية لا تعلم ما الذي يحدث بعد ذلك، ولكنها تعلم بكل تأكيد أن عزيمة آدم قد أدت دورها على أكمل وجه.

نصف ساعة مرت حتى جاء الطبيب، وتأكَّد من فحصِها، وعلمت أنها كُشفت لا محالة، وأن هذه المرة سوف يعدمونها بكرسي الكهرباء، أو بطلقات الرصاص أو الحرق ما دام الشنقُ لن يُجدي معها، ولكنها تفاجأت حينما قال الطبيب..

-"ميتة!"

***

جسام..

-"لا أفهم حتى الآن لماذا سمحت لذلك المخنث بتهريبها؟!"

ابن بوران..

–"كنتُ بحاجة لجمع أكبر عددٍ يرغبُ في الانتقام منك، كما كنتُ أوفِّر لهم الحماية اللازمة."

انفجر جسام ضاحكًا..

–"أتتذكرُ مصيرَها؟! يا ليتك تركتها تتأرجح في سلامٍ! ولكن يشغلني سؤال: لماذا لم تقتلني؟!"

رد ابن بوران..

–"سيحدث! ولكن بعدما أكون قد أفسدتُ كامل خُطتَك.. سأفعلُها وأعدُك أنه سيكون موتًا بطيئًا جدًّا ومؤلمًا حقًّا."

أومأ جسام ساخرًا..

***

فَرَدَ جمال لوحةً كبيرةً على طاولة بشقة عمر ليوضح للأخير ما يعلمُه بشأن جسام وعودته حينما تبيَّن لعمر علم جمال الكبير عن ذلك المخلوق. كتب جمال في منتصف اللوحة كلمة (السَّامِرِيِّ) وقال..

–"يوم من أيام قسم حكيم الأشخاص لستة أصناف، النوع الأول زي عسكري الشطرنج خادم مطيع لازم يعلن ولاءه الدائم لسيده.. بالسجود مثلًا! بتكون قطعة دايمًا رخيصة سهل الملك يضحي بيها عشان تخدم هدفك الأكبر.. غالبًا بتبقى أول قُربان."

ذهب عمر ليحضر كرسيًّا ويجلس أمام الطاولة ليدع لنفسه مُتسعًا من الوقت للتفكير، وخاطَبه عقلُه حينها أن هدفَ جسام لم يكن السجود لهدف السجود، بل كان هذا إعلان ولاء! بلال كان كالعسكري..

-"كمل.."

رسم جمال دائرة حول اسم السامري، وأخرجَ منها سهمًا كُتب عليه (عسكري)..

-"الأساطير بتقول إن تاني صنف هو الصمود الخارج من ثنايا الظلمات! غالبًا بتبقى بنت."

سحب عمر عقله دون أن يشعر ليفكر في سارة فظل صامتًا وبينما رسم جمال سهمًا آخر وكتب عليها كلمة (طابية)..

-"أما التالت هو شخص بريء، طيب، لكنه مستخبى وراه هالة من القوة وده الفيل.. رغم قوته العظيمة ولكنه فار ممكن يرعبه.. قوته هنا مش مقصود بيها قوة بدنية أد ما مقصود بيها قوة عاطفة، وعلشان يتم تجنيده لازم يقتل بريء"

رسم جمال سهمًا آخر وكَتبَ عليها (الفيل).. فكَّرَ عمر في نفسه حينما كان يدفعه جسام دفعًا لقتل نور الدين، فلم يعقب على الحديث واكتفى بالإيماء..

-"الرابع من عادته المواجهة رجل لرجل، مستحيل يخون، كلمته عهد، وده الفارس.."

رَسَمَ سَهْمًا جديدًا، وكتب عليه (الفارس)، وعندما حاول عمر التفكير لحظات في ذلك الفارس، فلم يجد شخصية محددة تُوحي له بكونه الفارس، فتجاهَلَ الأمر وتابَعَ التركيز في حديث جمال.

-"الخامس الأذكى، الأقوى.. عبقري عكس الفارس في حاجات كتيرة.. ده بيعشق المرواغة والخداع.."

كَسَرَ عُمر صمتَه هذه المرة قائلًا..

-"ده الوزير.. جسام!"

أومأ جمال وتساءل ليتأكد أن عمر قد فهم ما يقصده..

-"والملك؟!"

أجابه..

-"السامري!"

فأكمل جمال إجابة عمر..

-"الاسمى.. بيجمع كل صفاتهم معاه، أعظم ساحر في التاريخ صاحب ومؤلف المخطوطات السبع المنظمة لقوانين السحر والسيطرة على مملكات الجان، ويقال إنه كتب المخطوطة التامنة

قبل أسره وناس تانية بتقول لا إنه ملحقش يعمل كده.. نهايته.. يُقال إن علمه كان قريب من علم سليمان يُقال إن سليمان دوَّن كل حاجة كان يعرفها والسامري لقاها.. أنا شخصيًّا معرفش.. حتى مش متأكد من أن كل المعلومات ده صحيحة ولا لأ، كلها موجودة في كتب مش معروف مصدرها."

استند عمر بظهره إلى الكرسي، وأخذ يُفكِّر في الساعات الماضية خصوصًا تلك الورقة التي منحه إياها بلال قبل أن يهرب مع جسام من غرفة الاحتراق وحديثه عن الرموز التي يجمعها جسام..

-"بلال قبل ما يهرب قالي إن جسام بيجمع رموز ما! أظن فهمت إيه هي الرموز ديه دلوقتي بس ليه؟! والسامري ده هو نفس السامري بتاع قصة النبي موسى؟!"

أجاب جمال..

-"ليه معرفش! بس أظن ديه ضمن طقوس جسام بيقوم بيها عشان يوصل لهدفه، أما السامري فهو بشحمه ولحمه.. أظن!"

حك عمر مؤخرة رأسه من جديد وأضاف..

-"طيب فين السامري ده حاليًا.. هيرجعوه إزاي مش المفروض موسى قتله.."

أجاب جمال نافيًا..

-"موسى مقتلهوش.. محدش يعرف حصله إيه بعد قصة العجل، وكمان في اعتقاد إنه هو المسيح الدجال في الإسلام أو ضد المسيح أو الرسول الكذاب في المسيحية."

رَدَّ عمر..

-"بس سمعت إن في رجال الدين نفت ده.."

قال جمال..

-"أعتقد إن جسام عنده تأكيد إن الافتراض ده صحيح أو ممكن إن السامري مش هو المسيح الدجال فعلًا وإنه مجرد ساحر محبوس في مكان ما عاوز يرجعه باستخدام رموزه ديه أو عاوز منه هدف أعلى أو عاوز جيشه العظيم حسب الأساطير القديمة.. بردو معرفش."

عمر..

-"وإنت ناوي على إيه دلوقتي؟!.."

جمال..

-"هقابل جسام وأطلب منه علاج مراتي بأي مقابل.. طلب مقابل طلب بس!"

عمر..

-"وإنت فاكر إنها هتبقى بالبساطة ديه؟"

جمال..

-"حتى لو في أمل واحد في المية إنه يبقى بالبساطة ديه هتحرك في اتجاهه.. على الأقل احتمالية نجاح الموضوع ده أعلى من احتمالية تجربة أدوية مش معروف آثارها الجانبية.."

في هذه الأثناء ساد الصمت دقائق بين الاثنين حتى قطع الصمت صوت هاتف جمال الذي أعاد تشغيله، حينما قرَّرَ قُرب وصوله القاهرة، فوجد كما كان يخشى اسم الطبيب المسئول عن حالة ريم، فتيقَّنَ أن الفِراق قد حان، انتفض قلبه ذُعرًا وهو يستجيب للمكالمة..

-"آلو.."

-"جمال.. إنت لازم تيجي حالًا.."

-"ريم كويسة.."

-"جدًّا.."

اتسعت حدقتاه وهو يسمع كلمات الطبيب، فعاد الحديث ليتأكد أن ما يسمعه حقيقة..

-"يعني إيه؟!"

-"معرفش.. محدش عارف.."

مرت ثوانٍ، لم يجد جمال كلمات، فقال الطبيب..

–"لازم تيجي حالًا.."

–"حاضر حاضر.."

أنهى جمال المكالمة، وقال عمر وهو يرى نظرات الفزع على ملامح جمال..

–"خير؟!"

أجابه جمال بكلماتٍ أخيرة قبل أن يرحل مُهرولًا نحو الخارج..

–"جسام قَبِلَ العهد!"

***

(٢)

قبل خروج اليهود

السامري

حينها كنتُ صغيرًا، ولكن حُكم الأعمار لدينا كان مختلفًا عنكم كثيرًا في تلك الأوقات يا بني، فالطفولة لدينا كانت تمتدُّ لسنوات طوال، والمراهقة كانت قرونًا. أيضًا لم نمتلك نظامًا للقياس؛ لذلك احتَسِبْ عمري كيفما تشاء عزيزي مراش، كانت أمي تجلس في نهاية المأوى ترضع شقيقتي الصغرى حينما جاءنا أحد رسل نوحٍ مجددًا، وأخذ يتفحصنا جميعًا واحدًا تلو الآخر، كان رداءه رديئًا بعض الشيء إثر عملهم المتواصل في بناء فلكهم صاحب السخرية الكبرى في عالمنا، ولن أنكر أن الجميع كان على حق كيف لصحراء تصادق طوفان بين لحظة وأخرى؟!

ولكن طُفولتي جعلتني أؤمن بالمعجزات، لم أكن أصدق أن نوحٍ مبعوثٌ من الله، ولكنني كنتُ أصدقُ أنه بطريقة ما رأى المستقبل، عَلِمَ أن الأرض ستدبُّ بها المياه.

كيف؟!

لم أكن أعلم..

ولم أكن أريد أن أعلم..

فقط..

أردتُ أن أرتوي من عِلمه ويُعلمني كيف يرى المستقبل، لم أكن أراه سوى ساحرٍ أو مُشعوذٍ أو أي شيء من هذا القبيل، أما قومي فلم يروه سوى مختلٍّ، وتركوه ليستمتعوا بقتله على يد قومه حين يتم بناء فلكه ولا يجد المياه لتحمله.

– نوح يخبركم أنها الفرصة الأخيرة للالتحاق بسفينة النجاة. فبعد ساعات لا حياة على الأرض سوى ساكني الفلك..

أمي تنظر صامتة، وأبي ينهض بغيظ يصرخ بهم بقوة كادت تقطهم إربًا..

– ألن تكفوا عن ادعاءات قرب الطوفان..

صمت الرسولُ، وظَلَّ يرمقني أنا وأمي والرضيعة ورأى في عيني أمي التوسُّل الصامت للالتحاق وخشيتها أيضًا من صدق أحاديث الجميع حين يفشل نوح يظلُّ سكون الفلك إلى الأبد. تراجَعَ الرسول خطوتين إلى الخلف وهو ينظر لنا قبل أن يلتف ويتوجَّه إلى أطراف

القبيلة تجاه الفلك وأنا أهُرول خلفه، ووقفت عند مدخل خيمتنا، ولكن أبي مسكني بقوة وزعق فيَّ ..

– أتصدق الأمر؟! أتصدق أن هناك مَنْ يسكُن بالسماء؟! أتصدق نوح؟!

لم أجب عن أحاديثه، وظللت على الحياد، وتحركتُ ناحية أمي، ورأيتُ عينيها الدامعتين قبل أن تُربت على كتفي برفقٍ وهي تتمنى كل الأمنيات أن تكذب أحاديث نوح، وألا نرى للطوفان أثرًا، فلا تريد الموت في مثل هذا العمر من الشباب، وأرادت التلاعب على الأمان وسكن السفينة لسويعات قليلة، ولكن أبي لن يُوافقَ وقد يقتلنا إن كلَّفَه الأمرُ، فلن يتحمل إقصاءه من تولي حِماية قبيلتِنا. إذا وصل لأهل القبيلة أن أمي وأنا – ابنه الأكبر– أتباع نوح.

ومرَّت سُويعات الليل رويدًا وببطء شديد، والجميع يرتقب أشعة الشمس، رسل نوح أعلنوا للجميع أن الطوفان سيكون مع الشروق، ولمحت على أبي نظراتِ الرُّعب والترقُّب كلما مرت الدقائق وتلاشَى ضوء القمر، وأمي ظلَّت في فِراشها ينتفض جسدُها وهي تحتضن شقيقتي.

كشف أحدُهم عن غِطاء خيمتنا حاملًا في يدِه رمحٌ قصيرٌ هَرْوَلَ ناحيته أبي، فلكمَه الغريبُ بيدِه اليُسرى ليسقط أبي مُتألمًا تصلَّبْتُ أنا

في مكاني، كنتُ أظنُّه نوح! ولكنني علمتُ بعدها أنه كان أحد المقربين له..

– هذا هو الفتى يا سيدي..

تحرَّكَ ناحيتي رجلٌ آخر وحملني تحت إبطه، وأمي لأول مرة تخرج عن صمتِها وتصرخ..

– خذوني معكم .. أنا أؤمن بربِّ نوح.. أنا أؤمن بربِّ نوح..

ظَلَّ القائد متجاهلًا النِّداء، وقال أحد الجُند..

– أسنتركها؟! إنها تؤمن.. تستحقُّ النجاة..

تجاهَلَ مُجددًا أحاديث رِجاله وهَمَسَ بصوتٍ لم يسمعْهُ سواي..

–هذه عائلة ملعونة حتى مَنْ ننقذه الآن فهو أشدهم لعنةً وخطرًا، ولكنها إرادة الخالق..

أتعلَم يا ابن بوران لا أعلم لماذا منذ مهدى وأنا ملعون!

أنقذوني ولكنهم يكرهونني، في نظري ليس كل من ركب السفينة يستحقُّها! أمي حين فقدت الأمل في النجاة صرخت مجددًا فيهم أن يأخذوا شقيقتي..

أتعلم ماذا كان رده؟!

لن تصدق حتمًا..

تجاهل..

نعم..

تجاهَلَ الأمرَ، ورَفَضَ إنقاذَ رضيعه..

تركوها كما تركوا الكثير خلفهم من الخائفين من إعلان إيمانهم..

لماذا أنت صامت هكذا، مراش؟!

***

نَظَرَ إليه مراش بن بوران وتساءل في حيرة..

–إذن.. أأنت على قيد الحياة منذ بناء الأهرامات؟!

ابتسم الآخر ابتسامة هادئة لساذجة السؤال، ولكنه يعلم صِغَرَ سِنِّ الصَّبيِّ، فكتم ذلك في قلبه، واصطنع الجِدِّيَّةَ وأجابهُ بكلماتٍ قليلة..

–بل.. قبل ذلك بكثير.. هبطتُ إلى مصر لأول مرة حين اتبعتُ أحد أحفاد نوحٍ، وعشتُ بها، باختصار يمكنك اعتباري أول مَنْ هَبَطَ إلى تلك الأرض المصرية.

بترقب سأل مراش سؤال آخر..

–إذن ما اسمك الحقيقي؟!

أجاب بسؤال آخر..

–وهل الاسم الحقيقي ما اختاره أبي لي الذي أراد لي الهلاك ذات يومٍ.. أم الذي اخترتُه أنا لي؟!

رَدَّ مراش..

–أفهم من ذاك أنك عِشتَ بأسماءِ عِدة..

أومأ الرجل بالموافقة وهَمَسَ في أذن مراش..

–ولكنني أعشق اسمي الحالي..

صمت مراش وأضاف الآخر بعد ثوانٍ:

–أنا موسى.. موسى السامري.

انتفض مراش حين دفع الباب أحد الملثمين الباب وقال بذُعرٍ..

–موسى.. موسى.. سيشقُّ البحرَ اليوم!

تساءل ابن بوران مستوضِحًا الأمر أكثر..

–ماذا تقصد بشق البحر؟!

أجابهُ الملثم..

–هناك مَنْ يشيعُ أن موسى سيغادر مصر الآن عن طريق البحر، سيسخره ويشق طريق بداخله، ليعبر خلاله للجهة الأخرى..

همس السامري..

–"ارحل الآن.."

نظر مراش للسامري في انتظار خطته الآن..

–"تعلَّمتُ طوال القرون التي عشتها أن الربَّ دائمًا يبيد الأقوام الضالة."

فرد مراش..

–"ماذا تعني؟!"

–"أعني أنه لن يترك الفرعون وجيشه، وأن الإبادة قادمة لا محالة، إننا على وشك كارثةٍ كُبرى كالطوفان، ولكن أشعر أن هذه المرة ستكون أقوى، ستسقط مصر بأكملها."

–"وما العمل؟! ألن نحاول إيقاف ذلك الأمر؟!"

فجاءت إجابة السامري صادمة كثيرًا لابن بوران..

–"سنلحق بموسى.."

–"ماذا لو تعرف إلينا أحد؟! أنت لست مجرد مواطن بمصر.. "

–"أعلم، لا تقلقْ، الجميع يعلم أن الكهنة اتبعوا موسى منذ واقعة الثعبان الكبرى، ومع سُقوط كهنة مصر اتَّبع الكثيرون موسى، لن يهتم أحد بوجودي بينهم، كل ما يفكر فيه موسى الآن هو الخروج من هنا حالًا، وحينما تستقرُّ الأمور سأقنعُهم بكوني يهوديًّا".

باغت ابن بوران السامري بسؤال..

–"هل تؤمن بالله سيدي؟!"

رَدَّ السامري..

-"هناك عظيم فوق كل عظيم.. ولكني لم أفهم عظيم موسى ونوح بعد!"

سأله ابن بوران بتعجبٍ..

-"هل تظن أن رب موسى ورب نوح واحد؟!"

أجابه السامري بثقة..

-"مَنْ يأتي بالطوفان في الصحراء، بالتأكيد هو نفسه مَنْ يسمحُ بشَقِّ البحر."

**

لم يستغرق وصول السامري وابن بوران الفارسي الوصول لموقع النبي موسى واليهود سوى دقائق معدودة بعدما استخدم طقسًا قديمًا عن الانتقال اللحظي الذي كان يستخدمه سليمان قديمًا، وقد حصل عليه السامري بعد عدة معاهدات مع ملك قبيلة الدهاشنة مُقابِل تقديم خمسين قربانًا بشريًّا كل عام مقابل منحه تلك التقنية أو العزيمة القادرة على صُنع ذلك الانتقال. فكانت لهم الصفقة.

حينما وصل كان الجميع قد بدأ في التحرُّك بالفعل، فتداخل معهم دون أن يدرك أحدهم ذلك الأمر، رغم شهرة موسى السامري في تلك الأثناء إلا أن أحدًا من بني إسرائيل لم يكن يميز ملامحه

جيدًا، خاصة أنه كان دائم ارتداء رداء يُغطي معظم رأسه وتبعه ابن بوران في صمت والبحر يحيط بهم في مشهد مهيب يبثُّ الرُّعبَ في نفس ابن بوران، والإعجاب في نفس السامري..

–"أيُّ سحر هذا؟!"

سمعه ابن بوران ولكنه لم يُعقِّبْ كثيرًا على حديثه، واستمروا بالعُبور معهم بقية القوم، وفجأة صرخ أحدهم عن قُرب جيش الفرعون فدبَّ بالمكان حالةٌ من الهرج والمرج، وبدأت حركتُهم التي كانت أشبَهَ بالزَّحفِ، تحوَّلت لهرولةٍ، وسريعًا تبدَّلت بعدوٍ سريعٍ نحو الضفة الأخرى، فنظر ابن بوران خلفه، ورأى الفرعون يقودُ جيشَه، ويقطَعُ المسافات سريعًا نحوهم ليمنع رحيلهم ..

–"هل ترى ذلك الفارس؟!"

سأل ذلك السؤال السامري بعدما توقَّفَ فجأةً غير مبالٍ بما يحدث حوله، بصعوبة شديدة أنصتَ له ابن بوران والرُّعب يدبُّ في قلبه، فيعلم أنها النهاية، إما أن يغرقهم البحر أو يذبحهم جيشُ الفرعون أو أتباع موسى، في تلك اللحظة كان السامري وابن بوران قد صارا عدوَّين للجميع.

نظر ابن بوران للسامري مستفهمًا أكثر عن سؤاله، فأشار الأخير نحو مكان قُربَ مياه الضفة اليسرى للبحر المشقوق، فرَمَقَ ابن بوران المكان المشار إليه، فلم يَرَ شيئًا..

–"لا أرى شيئًا.."

بشرود ذهني شديدٍ قال السامري..

–"أنه أحدُ معلمي موسى.."

نظر ابن بوران مُجددًا نحو المكان، فلم يَرَ شيئًا للمرة الثانية، فلم يُعقِّبْ واكتفى بالصمت، أجابهُ، ولكن السامري لم يتوقف عن التطلُّع في الفراغ، بل سار يتحرك ناحية ضِفة المياه، وابن بوران ينظر خلفه، ويرى جنود الفرعون، وقد صاروا إلى مقربة منهم، وأن أكثر بني إسرائيل تقريبًا قد عبر نحو الضفة الأخرى فلم يقوَ ابن بوران على التوقُّفِ والانتظار، فهَبَّ يعدو مع بني إسرائيل نحو الضفة الأخرى حتى وصل إليها فشاهَدَ بعدها البحر يعاود الالتئام ساحقًا فرعون وجنوده بين فكيه واختفى السامري نهائيًّا عن أنظاره.

***

"أين كنتَ؟! حسبتُ أنك غرقتَ مع جيش فرعون."

سؤال همس به مراش للسامري الذي بقيَ ينظر للسماء دقائق مُفكِّرًا في أمر ما، ولكن مراش كَرَّر سؤاله مرة أخرى فانتفض السامري ونَظَرَ لمراش لحظاتٍ وقال..

"لقد رأيتُه!"

قالها وعاد في حالة من التَّوهان مُجددًا، وأخذت عيناه لا تفارقان النجوم، وهي تلمع بالسماء. مَرَّ بجانبهم أحدهم عرض عليهم القليل من التمر وشربة ماء تروي ظَمأَهم، أخَذَ مراش نصيبه والسامري تجاهَلَ الرجلَ، فرحَلَ دون أن يُعيدُ العرضَ، فالعبور منذ ساعات أرهقَ الجميع، فبعد أن تأكَّد مراش ابتعاد الرجل عن مدى السمع هَمَسَ مُجدَّدًا للسامري..

"ماذا رأيت؟!"

التفتَ السامريُّ لابن بوران قليلًا، وظلَّ يبحثُ بداخله عن إجابةٍ واضحةٍ ولكنه في النهاية أجاب غير مُبالٍ بكمال فهم ابن بوران للأمر..

"لا أعلمُ. ولكنه قوي. ليس من الجان. أو أنه نوع نادر منهم، لم نتواصل معه من قبل.. لا أعلم.. في لحظة يا مراش علمتُ أنني لا أمتلك من العلم سوى القليل، وهنا العالم ممتلئٌ بالأسرار.."

استلقى مراش على ظهره حين علم أن السامري لا جدوى منه في تلك الليلة، وظَلَّ ينظر إلى السماء في صمتٍ ولا يعلم ماذا تخبئ له الأيام من أتباع كاهن –السامري– يظن أن الشمس أذابت عقله أم يخشى من موس وقومه.. يفكر في كيفية اكتساب ثقة السامري ليعلمه ما دوَّنه في المخطوطات السبع عن علوم السحر الأسود كافةً.

كما كانت تؤرقه فكرة: ماذا إن كان موسى حقًّا رسول من الله للأرض؟ فكانت الأفكار تتضارب إلى أن صرعته غفوة صغيرة ضربه على أثرها السامري، لينتفض من غفوته

"أنتَ تعلم أنك كنتَ طفلًا مُشرَّدًا لولاي لكنتَ مُتَّ جوعًا.. لا نعلم حقًّا أين والداك!"

غضب مراش من كلمات السامري التي يكررها دائمًا الأخير من حينٍ لآخر، يذّكره السامري بمدى أفضاله عليه، حيثُ أنقذه من ظلمات الطرقات وأطعمه من طعامه واقتسم معه شَرابه، ثم شَبَّ واعتبره كابنه، ومضت الأيام، وتوسَّط له لدى الفرعون ليكون أحد الجنود، ثم علَّمه من سحره وطلاسمِه حتى صار يعجب الفرعون فانهالت عليه الترقيات رغم صغر سنه وخلافه من الأمور التي لن يمل ذكرها السامري أبدًا..

"صدقني أعلمُ كل ما ستقوله يا سيدي.. دعنا نَنَمْ قليلًا.."

"طالما داعبك سؤال كيف لي لا أشيب يومًا.. صحيح؟!"

أجابه ابن بوران بكلماتٍ برز فيها الأملُ والرجاء..

"وطالما تهرّبتَ من الإجابة، وكنتَ تُغيّرُ دَفَّةَ الحديثِ، فعلمتُ أنك تحتفظُ بإكسير الشباب لك وحدك.. أعلمُ أنك تملك سِرَّ الخلود، ولكنني أعلم أنك تريدُه لك وحدك."

ضحك السامري ساخرًا بعدها أجاب ابن بوران بكلماتٍ صدمته كثيرًا..

"أستصدقني أنني لا أعلم!؟ أبصرتُ على الدنيا والجميع يشيب ويفنى سواي، أظنُّ أن استطالة العمر بي جعلني أنسى ذكريات البداية عدا مشهد واحد لم أنسَهُ قط.."

-"أنت لا تُدْرِكُ سببَ خُلودِك؟! وعن أيِّ مشهدٍ تتحدَّثُ؟!"

-"المرة التي حاولت فيها مقابلة نوح في السفينة.. وتم منعني رجاله بقوةٍ، وبعدها قيَّدني أحدُ رِجاله في أحد الأعمدة، وهدَّدني بالقتل لو نطقتُ، وأخبرني أنني أشدُّ البشر لعنةً، أخبرني أنني ابن الشيطان!"

"وعلمتُ لماذا يفعل ذلك؟! وكيف امتدَّ شبابك لهذا الحدِّ؟"

"امتداد شبابي جعلني أفهم وأتعلَّم أن المعجزات يمكن أن تحدث دون سببٍ وجعلتني لا أؤمن بكل المدعين بأنهم أصحاب نبوءات من الإله سواء الواحد أو الآلهة المتعددة.. كما يحفل تاريخ مصر بالتعدُّدية قبل انقلاب أخناتون على ذلك في محاولة بائسة للتوحيد، ولكن سرعان ما عادت الأمور لسابق عهدها. كنتُ أشعرُ أن كل مَنْ لديه قُدرة يحاول تغير التاريخ والانقلاب على السلطة الحاكمة وصُنع تاريخ حضاري وديني يتلاءم معه حتى ضاعت الحقيقة بأكملها.. أما عن سُؤالك الآخر: لماذا أخبرني بكوني ابن الشيطان؟

فأنا لا أعلم الإجابة، ولكنني اصطنعتُ الإجابة التي أسعدتني..قد أكون حقًّا ابن الشيطان، أو قد لا أكون ذلك! ولكنني أعلم جيدًا أن من تلك اللحظة وهاجس الانتقام لديَّ.. كان يجب عليهم إنقاذ أمي وأختي، ولكنهم لم يفعلوا.. أتعلم مراش دائمًا أتمنى لو كان بإمكاني صُنع فلك نجاةٍ أخرى، ولن يكون هناك راكب فيها سوى من أريده فقط.. من سيراني الإله بهذا العالم.. لن أدَّعي أنني رسوله أو حامل رسالة منه لأنني سأكون الأقوى في الأرض.. سأكون إلهًا على الأرض".

غير ابن بوران دَفَّةَ الحديث ليهدئ من حِدَّةِ غضب السامري..

"ماذا شاهدتَ حينما انشقَّ البحر؟!"

نهض السامري في حماسةٍ شديدةٍ..

"تعالَ معي.."

سأله ابن بوران بتكاسُلٍ..

"إلى أين؟!"

انحنى السامري وجَذَبَ يَدَه بقوةٍ ليُجبره على النهوض..

"ستعلم قريبًا.."

***

يومها كانت السماء بلا شمسٍ وتعانَقت الغيومُ معًا، فكانت كستارٍ يحجبُ عنهم صفاءها، طافت حولهم الطيور صارخة، باكية، ترجوهم أن يتوقفوا في الحال، ولكنهم لا يسمعونها، فقد تلاشت عصور سماع الطيور – عصر النبي سليمان– كان السامري يرتدي رداءه الرماديَّ المحبب كثيرًا له يذكر مراش أنه لم يأخذ غيره قبل العبور خلف موسى بين شقي البحر العظيم. كان الشيء الوحيد الذي بقيَ حاملًا ذكرى من بلاد الأهرامات قبل سقوطها.

نظر السامري لمراش بن بوران وكأن عينيه جمرتان من الجحيم..

"ابن بوران.. الآن"

مدَّ يده لأخذ الوعاء الذي يحمله ابن بوران بين يديه. الوعاء الذي أخبرَ أنه وجده مُسبقًا يسقط من فرس أحد أتباع موسى من العوالم الأخرى حسبما قال! مُشدِّدًا القول: إن ذاك الفارس ليس من البشر أو الجان، بل إنه من عالم آخر، ثم لقبهم بالمعلمين، وكان لأول مرة أن يُلقِّب السامري أحدَهم بالمعلم، فكان يرى نفسه أنه الأفضل دائمًا حتى من الفرعون ذاته.

فتح الوعاء وابن بوران متحمسًا أن يرى ما بداخله، فقد كان يجبره على عدم التطلع لما بداخله منذ لليلة أخبره بوجوده. رأى قبضة يده تخرج من الوعاء لا تحمل سوى بعض الرمال السوداء فنطق مراش مُستنكرًا..

رمال! كل هذا من أجل رمال"

تجاهل كلماته وأخذَ يُتمتم بكلماتٍ سومرية الأصل التي سبق أن علَّمه إياها، ولكن مراش ما زال يجهَلُ ما يحاول السامري فِعْلَه بتلك الرمال، وذلك الصَّنم الذَّهبي الذي مكث كلاهما طوال الليل على نحتِه.

بعد أن أتمَّ كلمات عزيمته، سَمَحَ للرمال بالتطايُر نحو الصنم، ولم تمرّ لحظاتٌ حتى فتح الصنم عينيَّه، وشهقَ شهقةَ الحياة ساقطًا أرضًا عاجزًا عن الحركة، يُحاوِلُ الصَّنم الحيُّ النهوض فيعجزُ ويسقُطُ مُجددًا، كان لا يُجيدُ الحركة كطفلٍ رضيعٍ لم يتعلم التوزُان بعد..

-"إنها ليست رمالًا.."

وقف مراش صامتًا يُراقِبُ المشهد، يُراقِبُ صحيات الصَّنم الذي دبَّت فيه الحياةُ، ثم رَمَقَ السامري في ذُهولٍ وهَمْهَمَ دون أن يدري، وجسدُه ينتفضُ ذُعرًا..

-"كيف؟!"

ابتسمَ بفخرٍ وأجابهُ مشيرًا نحو الرمال..

"إنه الخلود. موسى يدَّعي أن إلهه عظيمٌ؛ لأنه يُحييَ الموتى، فلا أجدُ فارقًا بيننا الآن، اليوم سأبدأ في تدوين المخطوطة الثامنة والأخيرة.. مخطوطة مُنتهى السحر"

***

حدث الاصطدام، وضَلَّ اليهودُ، وسجدوا للعجل الذهبي، فغَضِبَ موسى وأمرهم بنحر رِقابهم، وطلب من السامري الرحيل! نَفَّذ الساحرُ الأمرَ ومساعده ابن بوران بغرور، يعلم السامري أن الأنبياء دائمًا لا يقتلونه، كل لحظة يترسَّخُ داخله أنه عدو منبوذ لسبب غير معلوم له، حاول مقاومة الأمر في البداية، ولكنه بعد ذلك قرر الاستسلام لذلك الشعور.

بعد مرور يومين من ترحال بلا هدف، اختار السامري أحد الأماكن للتخييم فيها، وهناك سأله ابن بوران، وكان ما زال يتجسَّد أمامه مشهد الانتحار الجماعي لقوم موسى بعد صراع طويل للخروج من مصر، وينتهي بهم الحال بتلك الصورة المخيفة والمزرية..

-"لماذا تركونا؟!"

-"لا أعلم، محتمل لكوني مميزًا! أو لكونهم عاجزين عن قتلي.. أخبرتك أنا خالد"

-"أشكرك لأنك تمكنت من أخذي معك.."

-"لا بد أن يكون هناك وريث.."

سمع ابن بوران خطوات قادمة من بعيد، فحاول إخبار السامري بذلك، فوَجَدَه يضع يدَه على مقبض سيفِه، فقد سَبَقَه بالسَّماع، بل

بدأ في الاستعداد لردِّ الاعتداء، فلم يمنع ابن بوران نفسه من السخرية..

–"حسبتك خالدًا.."

لم يجيب السامري في البداية، وظلَّ يحاول التركيز في المكان القادم منه صوت الخطوات..

–"بعض رجال موسى كانوا يتبعون تحركاتنا، موسى لا يعلم بهم بكل تأكيد.. تراجع"

فزع ابن بوران من الأمر وحاوَلَ التَّراجُعَ للاحتماء بين الصخور حسبما أمره السامري بذلك، منحه السامري سبع مخطوطات ليخبئها داخل ردائه خشية أن تسقط أثناء الصراع في أيدي رجال موسى، وتقدَّمَ أكثر ساحبًا سيفَه ومُشهرًا إيَّاه في الهواء، وفور تقدمه خطوات أخرى بدأ الالتحام، كانوا ستة جنود حاملين دروعًا وسيوفًا، وبدؤوا التناوُبَ بالهجوم على السامري، فطعنوه عِدةَ طعنات متتاليةٍ حتى انتهى به الحال ساقطًا أرضًا، وجسدُه يدمي.

فأشار أحدهم للآخرين، بدا لابن بوران أنه قائد لهم ..

–"احملوه.."

تساءل أحد التابعين الحاضرين وهو يزيل عن جبهته بقايا دماء السامري..

–"إلى أين؟!"

أجاب القائد..

–"ذلك الملعون لن يموت حتى لو طعناه إلى الأبد، سمح له موسى بالرحيل لأنه يعلم ذلك، كان الأولى أن يعدمه.."

حمله أحدُ الجنود على كتفيه مُتسائلًا..

–"إلى أين سنذهب به؟"

أجابهم..

–"على الجانب الآخر من الجبل ينتظرنا الكاهن حور، أخبرني أنه وَجَدَ لنا حَلًّا لتلك المعضلة، حلًّا سيخلصُنا من ذلك الساحر نهائيًّا.."

ابتعد جميعُهم عن المشهد، ومعهم موسى السامري مغشيًّا عليه، وكانت تلك المرة الأخيرة التي يرى فيها ابن بوران الفارسي معلمه السامري.. لم يكن ابن بوران سعيدًا بأسر سيدِه بقدر شَغفِه المتطلع نحو المخطوطات التي منحها إيَّاه السامري، شغله منصبه الجديد وقوى السِّحر المدونة في تلك المخطوطات، تلك المخطوطات كانت إرث السامري الذي لا يُقدَّر بكنوز الدنيا..

كانت سحر الأبدية أول ما بحثَ عنه في المخطوطات، فوجده مدوَّنًا بالكامل في المخطوطة الرابعة، رغم إنكار السامري الخلود

باستخدام السحر، فعلم أن السامري لم يكن صادقًا في كل أحاديثه.. لم يهتم كثيرًا وقرأ الشروط، وجدها شديدة الصُّعوبة عن تسليم الجان عددًا هائلًا من الأرواح البشرية، فعلم أن طريقه للخُلود غير ممهد وسيكلفه الكثير.. ولكنه نجح بعد ذلك في نيل الخلود.

بعدها بعدة سنوات نفذ ابن بوران الفارسي نوعًا آخر من السحر أسماه السامري في مخطوطاته بسحر الكمال. وفور انتهاء ابن بوران من تنفيذ المدوّن في المخطوطات ظهر جسام أمامه مَذْعورًا أمامه، ورُويدًا توطَّدت العلاقة بينهما، فكان جسام كابن لمراش بن بوران ساعده في أمور عدة ومنحه ابن بوران أكثر ما أخذ، فكان كل منهم مُكمِّلًا للآخر، حتى انتهى بهم الحال في القرن الثالث قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام، وحَدَثَ الخِلاف الأعظم بينهم واستغلته الكاهنة لميس في الإيقاع بابن بوران بمساعدة الكهنة، وكتيبة العقارب بفرعيها البشري وغير البشري –الجان الأحمر– لينتهي بكليهما الحال أسيرين في قبر مصري مُحكم بأشد أنواع الحراسة إلى الأبد.

حتى عادا من جديد في عام ١٩٩٩ ميلاديًّا

(٣)

وَصَلَ جمال المستشفى، وأخذَ يُهروِلُ بسرعة في طرقاتها التي استطالت أمامه فصار يصعب عليه تميز طريقه نحو غرفة زوجته، كاد أن ينزلق عدة مرات في طريقه واصطدم بكل المارة في الطرقات، حاول استعمال المصعد الكهربي، فلم يتحمَّل وقت وصوله فأخذ الدرج للصعود، كان الأدرينالين في أعلى مُستوياته داخل دورته الدموية، وصل الطابق المنشود ودخل سريعًا غرفة ريم فوجدها مُحاطةً بأربعة أطباء من قسم الأورام واثنين من الممرضات، يحيطون بها كأنها أسيرُ حربٍ تحت الاستجواب. ما إن دخل جمال الغرفة يرمق بشرتها التي تفشَّى بها الدماءُ، فجأةً قد اختفت تجاعيدُها، وتلاشت أوردتها البارزة، واكتسبت حدقتاها بريقًا قد نَسِيَه منذ شهور عدة، رغم كل ذلك كانت تبدو في حالة من الذعر والخوف مما يحدث حولها وهي لا تستوعِبُ ما قد سَبَقَ وأبلغوها به عن تلاشي الخلايا السرطانية من جسدِها..

لم يكن أحد من الأطباء قادر على تفسير ما حدث سوى أن الجميع مُتأكِّد أن ريم حصلت على معجزة إلهية ما، وأن الخالق مَنَحَها فرصة جديدة للحياة..

رَمَقَت زوجها بشغفٍ ولهفةٍ نادته لينقذها مما يحدث حولها ولتجد عنده جوابًا لما هي فيه من صحة وإحساس بالراحة لم تعرفه منذ شهور طويلة..

-"جمال؟!"

اقتربَ منها جمال وأمسكَ بيدها، والدموع تلمع في عينيه، فشرع في تقبيل يَدِها..

-"إنت كويسة؟!"

لم ينتظر إجابة وغلبت الدموع كليهما، فانسحبَ الأطباء من الغرفة، وما زالت الحيرة تغلب عليهما وتبعهما الممرضاتُ، وألقت ريم بنفسِها على صَدْرِ جمال..

-"هو إيه الي حصل؟! بيقولوا إني انا خفيت!"

مسح جمال بيده على شعرها مجيبًا..

-"خفيتي.. أه، إنتِ فعلًا خفيتي يا ريم."

قالت بصوت مبحوحٍ من كثرة البكاء الممتزج بالفرحة وعدم الفهم..

-"بس إزاي.. هو أنا ميتة دلوقتي، وديه الجنة؟"

ضَمَّها نحوه بقوةٍ، فلم تسأل مجددًا تاركة الأمر لكونه إعجازًا إلهيًّا مَنَحها الحياة من جديدٍ بعدما انقطعت بها السُّبلُ كافةً، أو كونها في حُلمٍ ما لا تريد الاستيقاظ منه أبدًا، أو كونها في عالم موازٍ آخر تحيي تلك الحياة التي طالما تمنَّت عيشَها، أو أنها في صورة ما من صور الجنة.. لا يهمُّ الآن التفسير المنطقي لوضعها.. ظلت تبكي بين ذراعيه وعَقْلُها غير مستوعِبٍ فكرةَ أن جسدَها قد تعافى أخيرًا، فصارت تهرب داخل عدة تفسيرات أخرى.. ولا تقوى على تصديق أن الشهور الماضية القاسية كانت كالكابوس الذي استيقظت منه للتوِّ ليبدأ زوجُها كابوسَه الخاصَّ لعلمه أن المقابل من جسام لن يكون بالأمر اليسير، ولكنه أطاح بالفكرة عن عقله عازمًا على تنفيذ ما يطلبه ذلك الشيطان مهما يكلفه الأمر المهم أنه استعاد ريم مجددًا..

حتى لو طلب منه السجود كما طلب من بلال فيعلم أن الله سيسامِحُه بكل تأكيد، وأن ذلك السجود مجرد أمر شكلي سيفعله لبقاء زوجته على قيد الحياة..

***

رَمَقَ ابن بوران حركة جسام..

-"التَّلاعُب بالبشر، مسكينة ريم.."

جسام بثقة..

–"وجمال ألا تراه مسكينًا أيضًا؟!"

رد ابن بوران..

–"لا أعلم ما الوصف الصحيح لجمال، لا أحد يُقدِّرُ الحكم على تصرفاته إلا من عاش المأساة نفسها.. لكل امرئ غاية لو اقتربت منها بالسوء سيحميها حتى لو تلوَّثت يده بالدماء!"

جسام بثقة..

–"نعم! أنت مُحقٌّ كحارسك الذي قتلته حينما نظر لعاهرة المعبد."

صمت ابن بوران بعصبيةٍ وضحكَ جسام ساخرًا..

–"أكانت غايتُك كاذبةً؟! مُخادعةً؟! خائنةً؟!"

أجابَه ابن بوران بعصيبةٍ..

–"تتحدث، كأنني فقط كنتُ الأسير.."

ضحكَ جسام مجددًا..

–"أسخرُ منك ليس لكونك الأسير، بل لكونك العاشِقَ.."

صمت كلاهما بعدها أردف جسام..

–"ابن بوران العاشق.. عاشق العاهرات.."

بعصيبة..

–"ألن تكمل؟!.."

جسام..

–"بلى.."

***

بعد مرور عدة أسابيع من هُروب جيهان

فتحت جيهان عينيها فوجدت نفسها بفِراشٍ ناعِمٍ هادئٍ وقد اختفت كل الفوضى السابقة من تلقاء نفسها، فكانت تشعر بسلام داخليٍّ أن كل شيءٍ انتهى الآن، وكابوس انتظار الموت تخلَّصت منه بفضل ذلك المدعو مصطفى أو ابن بوران الفارسي، كما أن رغبته في مساعدتها لقتل جسام أمر لم يكن يغضبها، طالما أرادت ذلك الانتقام؛ لأنها تعلم أنه مُشترك بشكلٍ أو بآخر في انتحار يوسف زوجها ومقتل شريف أخيها.

دخل الغرفة آدم مجددًا رَمَقَها، ابتسمَ لها ابتسامة اطمأنَّت على أثرها..

–"كله تمام.. لبنى.."

تعجبتْ من الاسم الذي نداها به آدم..

-"لبنى؟!"

ابتسم آدم و أجاب مُوضِّحًا الأمر..

-"جيهان بالنسبة للدنيا كلها اتنفذ فيها حكم الإعدام النهاردة.. إنما إنتي دلوقتي بقيتي لبنى"

تفهمت الأمر واكتفت بالإيماء ردًّا عليه فأضاف هو..

-"ممكن تنامي النهاردة.. عشان بكرة هتقابلي السيد مراش؟"

لم تسأله عن ذلك الشخص، لم تكن تريد الانخراط في الأفكار حتى لو ليلة واحدة أخيرة، فأومأت له، وأغمضت عينيها لتُنهي ذلك الحديث حتى لا يَذْكُر كلمات أخرى تدعوها للتفكير فيها طوال الليل، فانسحب آدم متعجبًا من موقفها المسالم، فودّ لو اعتذر عن الطريقة التي أحضرها بها إلى هنا، ولكنه تراجَعَ عن اعتذارِه ورَحَلَ في صمتٍ..

***

-"جسام قَبِلَ العهد.."

ظَلَّ رنين الكلمات يتردَّدُ في أذني عمر طوال ساعات الليل، فرغم كل ما مَرَّ به ما زال عمر عاجزًا عن التغافُل لحظةً واحدةً، هول مشهد القرية يعود ليراوِغَه فينتفضُ جسدُه ويكتمل ذُعره كلما تذكَّر قَبولَ جسام العهد من جمال، فتشغله فكرة أن ذلك الشيطان لن

يكف أبدًا عن إكمال ما بدأهُ، ولا سبيل سوى إيقافِه مهما يكلفهم الأمر، فحتى لو تجاهَلَ الأمرَ وادَّعى الصَّممَ، يعلم أن جسام لن يتركه لحاله. يحاول النوم من جديد، لكن هيهات أن يستجيب عقله لذلك الأمر كلما غَلَبَه النوم، يرى سارة وهي تصرخُ في أهل القرية لإحراقهم وهي تُلقِّبُهم بأبناء الشيطان، في هذه الأثناء كاد عمر أن يغفل من جديد، ولكن جرس هاتفه المحمول انتزعه مُجددًا، فسَحَبَ الهاتف من على الكامود، فكان المتصل النقيب طه الإبراشي، ضغط على مكان الاستجابة..

-"عمر باشا.."

-"أيوه يا طه.. خير."

-"بلال اختفى.. ملهوش أي أثر في المستشفى، كأنه فص ملح وداب.."

كان قلبه يسخر من كلمات النقيب طه، ثم يسخر من نفسه لأنه الوحيد الذي يعلم حقيقة هروب بلال من المستشفى وأيضًا لا يتمكن من البوح بتلك الحقيقة نهائيًّا حتى لا يكتب في تقرير فصله من العمل قد جُنَّ جُنونه!

-"عمر باشا، حضرتك معايا.."

-"آه.. معاك"

عمر ما زال لا يجد كلمات يستطع قولها في تلك الظروف الداخلية بأكملِها ستنقلب لهذا الحديث، بلال ليس بالمجرم الهاوي، فهذا القاتل محترفٌ وتاجِرُ سلاح كبير، هَرَبَ مِنْ حُكم إعدام قُبيلَ تنفيذِه بسُويعاتٍ قليلة.

-"معرفش!"

أغلق عمر الهاتف دون انتظار ردٍّ آخر من طه متخليًا عنه ليتحمل المسئولية الكاملة وحدَه، بعدها فَصَلَ بطارية الهاتف عن باقي أجزائه وحاوَلَ الاسترخاء من جديد في محاولةٍ ناجحةٍ هذه المرة مُتمنيًا ألا تُوقِظُه سارة من جديد بصراختِها التي لا تنقطع في أحلامه.

نام مقررًا الابتعاد عن تلك القصة نهائيًّا، وعدم الانخراط فيها مجددًا مهما يكن، حاول فضوله إجباره على عودته..

نام عازمًا على عودته للعمل مجددًا ناسيًا أو متناسيًا الأمر بأكمله..

نام متمنيًا ألا يرى جسام من جديد..

***

كان يجلس ابن بوران على ركبتيه محتضنًا كلتا يديه وسط بهو الفيلا الخاصة به، ينبح كلبه في الخارج بشراسةٍ يُغمضُ عينيه بتركيز شديد مُستغرقًا في عددٍ غير مُنتهٍ من الأفكار المتزاحمة داخل عقله

من عقوده المختلفة التي عاصرها بداية من عصر النبي موسى وصراعه مع الفرعون مرورًا بانتقاله لبلاد فارس مُنتهية على أيدي العقارب في أرض مصر التي عاد لها من جديد ليُحمل أسيرًا داخل قبر مسحور لأكثر من ألفي عام. يمرٌّ شريطُ حياتِه أمامه يلتقط منه ما يستطعُ ويمرٌّ ما يمرٌّ، يتباعَدُ صوتُ نُباحِ كلبه تدرجيًّا وتتباطأُ دقاتُ قلبه، يأخذ شهيقًا طويلًا ويكتُمُه داخل صدره لينقَطِعَ مع تنفُّسِه كل الأصوات حوله، عدا تلك الهمسات التي تقتربُ بالمحيط، يشعر بها، يشعر بحرارتهم وغَدرِهم، يشعر بالماضي.

دَخَلَ آدم وقال دون ملاحظة انشغال ابن بوران بالتأمُّل..

–"تفتكر الي عملناه مع جيهان هيفيد؟!"

فَتَحَ ابن بوران عينيه على مِصراعيها بشكلٍ مُفزعٍ فانتفض آدم، نَظَرَ ابن بوران إلى يساره كأنه يرى شيئًا فتبعه آدم ونَظَرَ لنفس المكان، ولكنه لا يرى شيئًا. ما زال ابن بوران يتتبع الكيان الخفي بتركيزٍ، فشعر آدم بنوعٍ من الخوف والفضول. يعلم ابن بوران أنهم حوله، يعلم أن لديهم نيةً في إلحاق الأذى به أو بمن معه..

أغمض عينيه من جديد، وأخذ شهيقًا آخر فداعبت أنفَه رائحةٌ دفعتْهُ دفعًا ليوم الهجوم على القصر. فعلم أن تلك الرائحة تعود لأحد المنتمين لكتيبة العقارب أو الجان الأحمر بوجهٍ عامٍّ، لم يقوَ آدم على الصبر أكثر من ذلك، فسأله من جديد بقلق..

–"هو في إيه؟!.."

شعر بضجر شديد لمحاولة آدم المتكررة في إخراجه من تركيزِهِ فهَمَسَ..

–"هشش.."

صمتَ آدم ونَهَضَ ابن بوران من مكانِه بهدوءٍ ورأسه تتحرَّك نحو اليسار مُتابعًا الكيان المتحرك أمامه، ورَفَعَ يدَه اليُمنى في الهواء ناحية أحد الحوائط المعلق عليها سيفه القديم الذي امتنَّ كثيرًا لتصرُّف المصريين القدماء حينما وضعوه معه في القبر ظنًّا منهم أن كل مقتنياته ملعونة مثله، فتحرَّك السيف بسرعة، فالتقطه ابن بروان وأمسكه بكلتا يديه، وما زال آدم يتابع الأمرَ، وخوفه أصبح يزداد رويدًا رويدًا وهو يستشعر الخطر الذي يُحاصِرُهم، فلم يتصرف ابن بوران بمثل هذا الشكل من قبل، فبدى مُتصلبًا يخشى الحركة. اتسعت عينا ابن بوران ورَمَقَ آدم بشكلٍ مُرعب وقد احمرَّت حدقتاه، فهرول مُسرعًا دافعًا الأخير نحو أحد الحوائط، فطار آدم مُرتطمًا بإحدى (الفاظات) الكلاسيكية لتسقط مُتهشمةً أرضًا، وأشهر سيفَه في الهواء، وهَبَطَ بيده كأنه يُبارِزُ العدمَ، فتعالت صيحة وتشكَّل جسدٌ أسود قصير كثيف الشعر مُرتديًا ملابس ذات هيئةٍ عسكريةٍ، وسَقَطَ أرضًا مُنفصلًا رأسه عن جسده، وسائل لَزِجٌ أسودُ يسيلُ من جسدِه. على الجهة الأخرى كان آدم أيضًا ينزف، فهرول ابن بوران

ناحيتِه، ووضع يدَه اليُسرى على جُرح رأسِه، وأخذَ يُتمتم ببضعِ كلماتٍ ليوقِفَ بها النزيف وآدم عيناه متصلبتان على جثة الجان الساقط أرضًا، ولكن لسانه عاجز عن النُّطق..

-"جسام قريب.."

قالها ابن بوران ونَزَعَ يدَه عن جرُح آدم الذي تلاشَى وتجلَّطت دماؤه، كان الأخير ما زالت عيناه متعلقتين بالجسد الأسود المُلقى على الأرض، فنَظَرَ لها ابن بوران، ثم أردفَ مُوضِّحًا الأمر أكثر..

-"مكنتش أتوقع إن القبيلة ديه لسه ليها وجود!"

جذب انتباه آدم فنظر له ونظراته تطلب من ابن بوران مواصلة حديثه..

-"كانت من أضعف مملكات الجان حتى مكناش معتبرينها مملكة بالمعنى الحرفي، ضعفاء، خدَّام، وأعتقد ما زالوا خادمين طالما جسام سيطر عليهم، علمهم مش كبير عشان كان سهل جدًّا على الفرعون، والكهنة تجنيدهم، بس واضح إن مستواهم ضعف أكتر وأكتر إن خلاهم يقبلوا إنهم يكون خدم تحت أمر جسام.. إزاي أقنع جندي منهم إنه قادر على قتلي! أظن جسام كان عاوز يوصلي رسالة وتقريبًا فهمتها."

تخلص آدم من بعض مخاوفه وخرج السؤال من فمه..

-"رسالة إيه؟!.."

استند ابن بوران إلى لحائط القريب وأردف..

-"إنه بدأ في السيطرة على مملكات عالم الجان لمساعدته.."

صمت آدم لحظات بعدها سأل..

-"طيب وإيه مصلحتهم؟!"

أجاب ابن بوران..

-"السامري قبل ما يتعرض للأسر على أيدي مساعدين للنبي موسى كان على بعد خطوات قليلة أوي من تطوير العلاقات بين البشر المتصلين بالجان أو السحرة زي ما بتسموهم، تطوير العلاقات يعني مرحلة أعلى من السحر، مرحلة أعلى من الخدمات التي يقدمها عالم الجان للبشر مقابل أكيد قرابين أكبر. فكان السامري أول من يقدم القرابين البشرية لملوك الجان، في الفترة ديه كانت أغلب القرابين حيوانات. زئبق. دهب. فضة.. أما بشر! كان السامري أول واحد يعمل كده.. السامري اتصل بشخصية عظيمة من عالم الجان وطلب منها معرفة سر من أكتر الأسرار المخفية عن عالمنا مقابل ضحية بشرية فملك الجان عرفه عن قبيلة تعرضت للأسر قديمًا.. كانوا أقوياء.. قتلة.. سحرة.. ولكنهم محبوسين في مكان غير معلوم لكل البشر في الاتصال التاني بين السامري والملك طلب منه أن

يعرف مكانهم وطريقه للسيطرة عليهم مقابل روح الإنسان الكامل، فرفض الملك العرض، ولكنه قدم شرط لو نفذه السامري هيقبل.."

ردَّ آدم..

-"شرط إيه؟!.."

تردد ابن بوران لحظات، ولكنه انتهى به الأمر للإفصاح عما كان يخبئه منذ سنوات عديدة..

-"حق الرجوع، ملك القبيلة طلب السامري مساحة تحت حكمة، الي كان هيعتبروه مجرد حكم ظاهري لأنهم بالتأكيد كانوا هينقبلوا عليه بعد فترة.. باختصار الجان عاوز يسترد الأرض الي البشر أخدها منهم"

-"بس.."

قطع الحديث صرخة قوية أطلقها ابن بوران الفارسي إثر ألمٍ شديدٍ شعر به بصورة مفاجئة في ظهره، فسقط على إثره على ركبتيه، ففَزِعَ آدم من منظره، كان لأول مرة يرى فيها آدم ابن بوران متألمًا بهذه الصورة..

-"في إيه؟!.. مالك"

تعالت ضحكة بالمكان فسمعها آدم وابن بوران وحتى جيهان من طابقها العلوي بعدها نطق الصوت بلغةٍ غريبة..

–"انتهى عهدك حفيد أهل فارس.."

قال آدم..

–"مين بيكلم.."

أشار له في الحال ابن بوران الفارسي ليتوقف عن الحديث وبتألم شديد نهض وردَّ باللغة نفسها..

–"أبلغوا حكامكم أن ما يحدث هنا الآن خطأ جسيم.."

ضَحِكَ الصوت من جديد بعدها نطق ..

–"أتسمع صافرات الحرب؟! إنها تقترب، قيوده بدأت في التهشُّم، إنه عائد!"

رد ابن بوران ..

–"مستحيل يتم ذلك، جسام بلا فارس!"

ضحك الصوت ولم يرد مجددًا، قال آدم:

–"كان بيقول إيه.."

متألمًا قال ابن بوران..

–"بيهددني إن السامري هيتحرر.."

شعر آدم برعشة وانتصاب في كامل شعيرات جسدِه..

–"إزاي؟!"

لم يحصل على إجابة قط، سقط ابن بوران من جديد أرضًا على وجهه، ففَزِعَ آدمُ حينما رأى ملابس مراش مُقطعةً من الخلف، بها جرح عظيم والدماء تتساقَطُ منه، فحاول إعادتُه لوعيه، ولكنه كان غائبًا عن الوعي تمامًا.

***

استيقظت جيهان على إثر تحطُّم الفاظة حينما اصطدم بها آدم انتفضت فزعةً من مكانها، لأول مرة تفكر في المكان الذي تنام فيه، نهضت من مكانها محاولة التعرف إلى ذلك الصوت والحركة المريبة في الخارِج، ومُحاولة مرة أخرى التعرف إلى المكان الموجودة فيه، فتحركت نحو النافذة الوحيدة بالمكان لتمرُق حديقة فسيحة تحيطُ بها وسط عَتَمة تُخفي ما خَلْفَ ذلك وترى في الكادر كلبًا لا يتوقف نُباحه أبدًا، كانت الغرفة كلاسيكية الطابع، بها فِراش بُنيُّ الأخشاب وخِزانة ملابس مزودة بمرآة كبيرة، وقطعتا كامود على جانبي السرير، نظرت جيهان لنفسها في المرآة فتأمَّلت جسدَها كيف فقدت العديد من وزنها في الفترة التي مكست بها في السجن مترقبةً تنفيذ حُكم الإعدام، رمقت تلك التجاعيد التي ظهرت مؤخرًا على جانبي عينيها وشعرها الذي شاب القليل منه، ليمنحها مزيدًا من السنوات الوهمية لعمرها، في تلك الأثناء سمعت همساتٍ وحركاتٍ غير مفهومة

بالخارج، فترددت قليلًا قبل أن تفتح باب الغُرفة ولكنها فعلت في النهاية، فكانت أمام طرقة طويلة تنتهي بدرج لأسفل، فتحركت معها على أمل ألا يراها أحد على الأقل حتى تدرس طبيعة هذا المكان، وعن ذلك الشخص الذي أنقذها من حبل المشنقة.. ذلك المدعو سيد بن بوران.

هبطت جيهان الدرج فرمقت ابن بوران الجالس مستندًا للحائط وآدم الراقد بين الحطام، وجسدًا مقطوعِ الرأس لكائن قبيح الهيئة يُشبهُ كلبًا، فحاولت الصراخَ، ولكنها كتمت فمها بيدِها محاولةً عدم الانصياع في طبيعتها وغريزتها الأنثوية، والتقطت أذناها بعض الكلمات..

–"يعني إنت جيهان مجرد طابية تضحية بالنسبالك؟!.."

–"جيهان ونور الدين جزءين مهمين جدًّا في اللعبة رغم كده مينفعش أتجاهل هدفي الأصلي.."

–"ممكن تضحي بيهم؟!"

"جسام لو حرر السامري الدنيا هتبقى بحور من الدم.."

–"أفهم من كلامك إن إجابتك إنك ممكن تضحي بيهم.."

صمتَ كلاهما لحظات..

بعدها قال ابن بوران..

-"جسام قريب.."

وتم الحديث السابق ذكره ولكن جيهان لم تكمل الوقوف..

كان ما سمعته من آدم وابن بوران، ومنظر الكائن مقطوع الرأس سببين كافيين في أن يترسخ في علم جيهان أن آدم لم يهربها من إعدام سوى ليلحقها سيده بإعدام آخر، وبدأت في التفكير في هروبٍ جديدٍ، فعادت سريعًا لغرفتها، وادَّعت النوم في سريرها حتى لا يشعر أحدٌ بشيءٍ حتى تمنح نفسها فرصة سُويعات قليلة لتفكر في طريقة طيبة للهروب من هذا المكان والاختفاء نهائيًّا لأي مكانٍ بعيدٍ عن كل هذه الأمور الغريبة التي ما زالت لا تُفسِّرُها، كانت جيهان تعلم أن جسام كائن يستحقُ الحرقَ، ولو كان الأمرُ بيدها لفعلت ذلك، ولكنها لن تقبل أن تكون حياتها ثمنًا لذلك بكل تأكيد..

سمعت صرخات ابن بوران، فلم تملك الجرأة لتبقى في الغرفة دون الرجوع ومتابعة ما يحدث بالخارج، وعندما خرجت تابعت مشهد سقوط ابن بوران مَغشيًّا عليه، وانشغال آدم في حَملهِ على كتفيه نحو الطابق الأعلى ليضعه في فِراشه، فعَلِمَت أنها فرصة إلهية قد لا تكرر أبدًا للهروب، فلم تُضيِّع مَزيدًا من الوقت في التفكير، وهرولت بهدوء نحو الخارج دون أن يشعر آدم بذلك، وفور خُروجها أخذت تجري بشكلٍ أسرع حتى اختفت داخل ظُلمات الليل..

***

أزاح جسام عسكريًّا من جيش ابن بوران بفارسه ليكون بعدها في موضع مواجهة مباشرة مع قطعة الملك الأخيرة..

–"مات العسكري.. وستهرب الطابية.. و أخيرًا كش ملك.."

حرك ابن بوران الملك خطوة لليمين..

–"رويدًا رويدًا.. لا تكن مندفعًا كل الخطط لا بد لها من التضحيات، وهذا مجرد عسكري".

ضحك جسام ساخرًا..

–"أتذكر أول عسكري قتلتُه لك.."

***

رمزي..

–"أنا لم أفعل شيئًا.. أنا فعلتُ كل ما أمرت به.."

من كتاب الثالوث

***

أردفَ جسام..

–"أتذكر رمزي، مَنْ تلاعبتَ أنتَ به لتجبره على تحريك، ولكنك كنتَ ضعيفًا في تلك اللحظة، فكان سهل أن أسيطر أنا على جسدك وأجعلك تقطع جنودك إربًا إربًا.. كان أكثرهم ولاءً لك"

سيطر ابن بوران على غضبه بينما أضاف جسام..

–"اندماجنا رغم أنه كان سيئًا فقد كان مُفيدًا في تلك اللحظة لأسقط أول أتباعك بيدك!"

غَيَّرَ ابن بوران دَفَّةَ الحديث..

–"ماذا عن العسكري البشري في صفوفك؟! صاحب الولاء وذي الدماء الكافرة.. كنتَ بارعًا"

بغرور ابتسم جسام..

–"تقصد بلال؟.."

***

داخل مكان غير معلوم كان يجلس بلال ممارسًا نوعًا من الرياضة التي سبق أن عَلَّمَه جسام إياها بعد الفترة التي هربا فيها كلاهما من البيت قبل أن تشرعَ سارة في إحراقه، عَلَّمه جسام الصبر، وارتفع بغروره لأزهى مستوياته، أخبره عن امتلاك البشر عينًا ثالثة، أسماها جسام العين المطمورة للبصيرة، أخبره أن من خلالها يمكنك رؤية ما لم تكن تراه من قبل، أخبره عن أجر عظيم مُقابِلَ مُهمتِهِ الأخيرة التي يعدُّه لها، شرح له طلب السجود، لم يكن انتقامًا أو ردَّ اعتبار كما فهمه في البداية، بل كان إعلان خُضوعٍ وولاء لتنفيذ ما تبقَّى من مراحل أخيرة يسعى لها جسام.

حينما فتح بلال عينيه شاهَدَ جسام يجلس الوضعية نفسها مُغمضًا عينيه، ولكنه قال..

–"أغمض عينك.. الرؤية أوضح بالعين المطمورة!"

لم يُنفِّذْ بلال الأمر ولكنه سأله مُستفسرًا..

–"مرت أسابيع ولحد دلوقتي معرفش إيه المهمة أو إنت بتجهزني لإيه؟!"

بنفس الثبات أجابه جسام..

–"طالما بتعصى الأوامر، تبقى لسه مش جاهز.. شرط المهمة الأخيرة الطاعة".

أغمض بلال عينيه هذه المرة مُستسلمًا لحديث جسام خامدًا فضوله لبعض الوقت لعل الساعة المناسبة تأتي قريبًا، وينفذ طلبات جسام الأخيرة، ويرحل عنه دون رجعةٍ وينتهي ذلك الأمر نهائيًّا، ولكنه طالما حَدَّثه هاجسٌ داخليٌّ أن كابوس جسام لن ينتهي أبدًا، وأنه كلما مَرَّ وقتٌ يشعر أن قُوى أكبر تَربِطُه بذلك الكيان الشيطاني. زاره هاجس عن طلب المزيد من جسام مقابل تنفيذ أوامر أكثر، فكر ببيع روحه بشكل كامل للشيطان مقابل إكسير الأبدية، كان يعلم أن هناك سعيًّا لتحرير السامري، وهذا ساحر أبديُّ الحياة، فعَلِمَ أن هناك طريقة

للأبدية، ففكر بطلب مفتاح ذلك الأمر ولكنه تردَّد في تنفيذ هواجسِه..

–"كفاية تفكير.."

بلعَ بلال لُعابه، وحاول إخماد أفكاره بصعوبةٍ بعدما أثبت جسام في عدة مواقف خلال الأسابيع الأخيرة أن لديه المقدرة بقراءة الأفكار أو استنتاجها مُستخدمًا العين المطمورة التي طالما تحدث عنها.

***

قال جسام مخاطبًا ابن بوران..

–"بلال رغم ضعف إمكاناته فقد كان الأهم في جيشي! الفارق بيني وبينك أنني أحترمُ الجنود لأنني كنتُ منهم.. إعداد جنديٍّ مُخلصٍ يحتاج مجهودًا كبيرًا ".

ردَّ ابن بوران الفارسي..

–"أخذت رحلتك مع بلال سنوات.. ولعبة زائفة عن الأمنيات التسع، صنعت تسعة مستويات لهدمه، ونجحت بذلك وجعلته عبدك!.."

–"لا تحسب نفسك بريئًا مما حدث، فكل تقنية أستخدمها أنا أنتَ مَنْ علَّمتني إياها، حتى حينما عدت قتلت من جديد، أتذكَّر

قُطَّاع الطرق الذين حاولوا الاعتداء على نور الدين.. ما زال التعطش لسفك الدماء يجري في أوردِتك.. حينما قتلتهم كنتُ أتمنى أن تنهض من غلفتِك، ونعود معًا لسابق عهدنا، لو كنتَ أطعتني لما كان هناك قوة لتقف أمامنا، فلم يعد هناك عاهرة معبد تأتي لتأسر قلبك قبل أن تنجَحَ في أسْرِ رُوحِك وجسدك.. لكنك أخفقت كثيرًا حينما قررت أن تلعب معي للمرة الأخيرة.. كلانا يعلم أنك الخاسر هذه المرة أيضًا".

–"تُقلِّلُ من شأني كثيرًا، ونسيتَ أنني نجحتُ في تجنيد نور الدين ليكون أحدَ خُصومِك، ألم يكن هذا فارسَك؟!"

–"لم تكن لتنجح في ذلك الأمر بدون إذني وسماحي بذلك.. كما أن ذلك الطموح لا يمكن أن يكون بفارسي، فارسي أعظم بكثير!"

–"ولكن قبيلة الجان الأحمر.. كيف تعاونوا معك لتنفيذ هجومك غير المبرر لبيتي؟! دومًا اعتادوا العبودية، ولكني لا أذكُرُ أنهم اعتادوا الغباء!"

ابتسمَ جسام بغرورٍ وبدأ سرد الأحداث بثقة..

***

من العدم ظهر جسام بهيئته الحقيقة أمام بوابات قبيلة الجان الأحمر المعدنية الضخمة، أمامها كان يقف حارسان لهيئة تشبه جسام قليلًا، موشوم على ذراع كل منهم وشم عقرب بلون ذهبي، كل منهم عاري النصف العلوي ولا يرتدي سوى تنورة قصيرة من السواد، كان جسداهما مشبعين بالشعر الأحمر القصير، ويحمل كل منهما سيفًا فضيًّا خلف ظهره. نظر كلاهما للآخر، وجسام يتشكل أمامهما فسحب أحدهما سيفه وهب بالانقضاض على جسام، فانحنى أمامهما في الحال رافعًا يده صارخًا..

-"جئت في سلامٍ.."

فقال الحارس..

-"انتظر سعدان!.. مَنْ أنتَ؟! وإلى أين تحسب نفسك ذاهبًا؟ وكيف لك أن تستخدم التنقل بهذه الصورة؟ فقد حُرِّم ذلك منذ أمدٍ بعيد".

اعتدل جسام قليلًا من انحناءة وقال..

-"أنا جسام، جئتُ لمقابلة الملك آشور، فقد أخبروني أنه الحاكم الآن."

قال سعدان برهبة قليلًا..

-"حسبتُ حكايتك مع البشري دربًا من الخيال، حسبما أنه لا وجود لك."

قال الحارس الآخر..

-"صدقني إن ذلك المكان هو الأخير الذي تودُّ الذهاب إليه، فأنت مُلقَّب هنا بالعدو الأكبر لانتهاكك الحدود كافة بين البشر والجان، كما سعيت لتحرير الساحر المتمرد السامري."

قال جسام..

-"أريدُ مُقابلة الملك آشور.."

قال سعدان ساخرًا..

-"الملك آشور سيقوم بإعدامك فور عِلْمِه بهروبك.. ولا أظنُّ أن هناك سبيلًا للهرب الآن لأنك قيد الاعتقال."

ضحك جسام بهدوء بعدها، وقف بشكل معتدل تمامًا وبلهجة تحدٍّ أضاف..

-"أنا لا أهرب، أخبر الملك آشور أنني أريدُ الحديث معه الآن".

نظهر سعدان للحارس الآخر منتظرًا مَشورته، فقال الأخير..

-"أخبر السيد رحيم أننا قبضنا على العدو الأكبر المارد جسام.."

فور انتهائه من الحديث مدَّ يدَه، فخرج منها دخان أسود التف حول رقبة جسام، فكانت كاللجام، أجبره بها على الهبوط على ركبتيه كنوعٍ من كسر شوكتِه، فضحك جسام من تلك المعاملة..

–"ستندم كثيرًا بنيَّ.."

في الزنزانة مكث جسام منتظرًا قدوم الملك آشور الذي كان يعلم أنه لن يتأخر كثيرًا، كان يعلمُ أنه فُضولي، القرارات الحاسمة لا يأخذها بشكلٍ مُتسرِّعٍ دائم التطلع لأي أمرٍ مُقبْلٍ عليه قبل تحديد مصيره، فكان لا يخشى كثيرًا خطر الإعدام بصورة مُباغتةٍ، بل كان أكثر ما يُقلقُه في تلك الأثناء هي قدرته على صياغة الكلمات المناسبة لإقناع آشور لمنحه ما يريد من مساعدات، لم يمر وقتٌ طويل حتى فُتحت بوابة الزنزانة الأمامية، وظهر الملك آشور وحوله أربعة من الحراس، كان يرتدي رداء واسعًا من اللون الأبيض، كان ضخم الجثة، ذا عضلاتٍ بارزة، وعينين حمراوين حادتي النظرة، كان خاليًا من الأسلحة عكس ما كان يتوقع جسام، الشُّعيرات التي تُغطّي بشرته لم تكن حمراء أو سوداء كالمعتاد، بل كان ذهبيًّا لامعًا لكونه من النسل الملكي لمملكات الجان، بثقة تقدَّم ووقف أمام جسام الذي كان مقيدًا، في أحد الحوائط بسلاسل صُنعت من النحاس والحديد فجعلته عاجزًا عن تحريك أيٍّ من أطرافه الأربعة.

–"لم أتوقع قُدومك قط.."

كان صوته أجش غليظًا، سمعه جسام فاقشعرَّ جسده خوفًا من فشله في إقناع آشور بالأمر فاصطنع الثقة، وأجابه بكلمات مختصرة محاولًا جذب اهتمامه والتَّلاعُب بفضوله، رغم أنه في تلك اللحظات شعر بشيء من الخوف خشية أن يكون الملك آشور لم يعد فضوليًّا كما كان في صِباه..

–"سيدي، جئتُ طامعًا، في الإنصات لي.."

بنفس الصوت الأجش الحاد أجابه آشور..

–"نحن لا نسمع المتمردين والقتلة أبدًا.."

ارتعش صوت جسام قليلًا وهو يقول..

–"سيدي، يُحزنُني كثيرًا المكانة الهزيلة التي صارت تحتلها مملكة الجان الأحمر في الآونة الأخيرة، كنتم دائمًا الأعظم والمفضلين لدى الفرعون، والأسر المصرية الحاكمة، كيف وصل الحال بكم إلى هذا الحد؟"

احتدت ملامحه وصَرَخَ غاضبًا..

–"أتسخر منا أيها الوغد؟"

تأهَّبَ حُراسه الأربعة، كل منهم ممسك مَقبض سَيفِه على أتم الاستعداد لتنفيذ حُكم الإعدام الفوري الذي توقعوا أن يُصدِرَه آشور في أي لحظة، لا شيء مما يحدث كان يَخْفَى على جسام، فقد كان

يلاحظ كل شيء يحدث من حوله، فتراجَعَ في لهجته سريعًا، وقدَّم اعتذارَه بشكل ذليل بعدها قام بتوضيح الأمر بصورة أكثر تهذيبًا..

–"أعتذر، لم أقصد ذلك.. ولكني أقصد أنني قادِرٌ على إعادتكم للقيادة من جديد."

باختصار معتاد رد الملك آشور..

–"كفاك تلاعب بالحديث وقل ما لديك."

انتصبت شُعيرات جسد جسام، وبَلَعَ لُعابه بصعوبة محاولًا التفكير في الصياغة اللازمة لعرض ما أتى به إلى ذلك المكان المنبوذ البعيد. يعلم أنه لا يملك سبيلًا للخروج سوى بصفقة، إذا لم يحصل على اتفاق سيُعدمُ في الحال أو سيمكث في سجونهم مدى الحياة..

–"كلنا نعلم أن السامري كان يمتلك ما لم يمتلكه أحدٌ من قبله من عُلوم السحر، كان قادرًا على تسخير الجميع حتى الملوك له، وقد قام في الأيام الأخيرة بتدوين كل علومه في سبع لفائف. يوم القبض عليه من رجال موسى واختفائه منح اللفافات لتلميذه المخلص ابن بوران الفارسي، فتعلَّمها عن ظهر قلب، ومنحته القليل من القوة والحنكة والذكاء الكافي للتعامُل مع عالم الجان، ونال مرتبةً غير قليلة وكرَّس حياته في البحث عن المجد الذي سبق ووصل له معلمه.. وحينما يئس من ذلك قرر إعادة السامري وتحريره من أسْرِهِ مُقابل التعلُّم منه المزيد وشعر أن مجرد تعليم قوانين السحر ليس

كافيًا.. ولكن الوقت كان قصيرًا، ونجحتم أنتم في أسرِنا بمساعدة لميس عاهرة المعبد.. وضاعت المخطوطات كافة بعدها، وأنا أعتقد أن لميس سَرَقَت مخطوطة ابن بوران الفارسي.. بعدها سقطت مصر في حرب ضد بلاد فارس، وتراجعت التعامُلات البشرية، وفقدتم قيادتكم حينما، تراجعت الامتيازات كافةً التي كانت يمنحها إياكم البشر وحتى وصلتم لتلك المكانة.. "

حديث جسام المنتظر جذب اهتمام آشور، حقًّا كانت مقدمته طويلة، ولكن آشور يعلم أن جسام على حقٍّ فيما قاله من حديث، فجذبه الفضول..

-"هذا كل ما تملك؟!"

سريعًا نفى جسام ذلك وبدأ في استكمال حديثه..

-"أظنُّ أن ما تحتاجه الآن قبيلة الجان الأحمر هو إثبات أنها الأفضل، وإعادة التعامُلات البشرية مع الجان من جديد، لن يتم ذلك بدون ساحر عظيم.. وبدلًا من تعليم أحدهم تلك الأمور فهناك أسير يُمكنُنا تحريره من جديد، تحرير السامري سيعيد القرابين البشرية لأزهى عُصورها، سيقتل ابن بوران الفارسي لأتحرر أنا منه إلى الأبد.. بالتأكيد أنه غاضِبٌ منه الآن وهكذا يفوز الجميع!"

مع كل كلمة ينطق بها جسام كان يخطف انتباه آشور أكثر وأكثر، فاكتسب جسام الثقة أكثر، وشعرَ أن الأمر تحت سيطرته

أخيرًا، وأن آشور ما زال فضوليًّا كما كان في الماضي وبالتأكيد سيهتم كثيرًا بعرض قد يُعيدُه لقيادة الأمم كما كانوا في السابق والتحالُف مع السامري لم يكن بالأمر الهيِّن..

-"ولنفرض أن حديثك صحيح.. ما المطلوب منا؟"

عَلِمَ جسام في تلك اللحظة أنه انتصرَ وحَصَلَ على ما يريدُ أخيرًا، فأجابه بثقةٍ..

-"شيء بسيط جدًّا.."

***

رشف ابن بوران من كأس نبيذه واعتدل في جلسته وضحك ساخرًا..

-"وَلَعُ القيادة سَيْطَرَ على آشور لدرجة أجبرته على التحالُف مع مجنون مثلك."

ضحك جسام بغرور..

-"لا تنسَ أن التقليل من الخصم ليس صوابًا.."

عاد ابن بوران بتركيزه نحو رقعة الشطرنج وشرعَ في تحريك إحدى قِطع جيشه..

-"لم أُقَلِّلْ من شأنك قط.. فأنت قريني! وأنا أعْلمُ أن قريني ليس بالعدوِّ الهيِّن."

ابتسم جسام وظل لحظات مُحملقًا في ابن بوران قبل أن يرد..

-"حسبتك نسيت ذلك الأمر.."

-"أنت مَنْ نَسيَ أنني من حوَّلتُك من صورتك الخفية إلى أخرى حرة، منحتك جزءًا كبيرًا من حُريتك، وحينما طلبت منك المساعدة يوم الهجوم على القصر، رفضت ببساطة، بل طمعت في كل شيء أنا رسمتُه."

لم ينظر جسام لابن بوران وحرَّك قطعة من جيشه، وسأله مُستنكرًا دون النظر إليه..

-"نصف ما تسعى إليه لقرينك، تُسميه طمعًا؟!"

بأسًى أجاب ابن بوران..

-"ما كان يجب أن أنفِّذ تلك العزيمة أبدًا، كان يجب على موسى السامري أن يشرح في مخطوطاته الآثار السلبية كافةً من تحرير القرين.."

بسخرية رد جسام..

-" عزيمة الكمال.. نَسِيَ تحديد مَنْ سينالُ الكمال، البشر أم الجان المنفصل؟!"

-"كيف لم أفكرْ حينها أنه لم يفعل ذلك لنفسه؟! السامري لم يتحرر قط من قرينه ومع ذلك دوَّنها في مخطوطاته، أظنُّه كان يخشاها.. كنت غبيًّا"

أنهى ابن بوران عبارته، ودام صمت لبعض الوقت فاستأنف كُلٌّ منهم اللعب..

***

ابتعدت جيهان قدرًا كافيًّا عن المكان، وقفت في منتصف الطريق السريع وبدأت تُلوِّحُ بيدها لسيارة مارة فتجاهلها سائقها، فلم تيأس وظلت مكانها حتى بدت لها سيارة قادمة من بعيد تهدئ من سرعتها، تنفَّست الصعداء وهرولت نحوها، توقفت السيارة وفتح سائقها الباب وترجَّل منها..

-"ممكن توصلني معاك؟!"

لم يجب السائق، واقتربَ منها، والظلام يُخيِّمُ على ملامح وجهه، بثَّ الخوف في قلبها بعض الشيء، لمحت في يده خِنجرًا صرخت بقوةٍ، حاولت الجري، ولكنه كان أسرعَ في الهجوم عليها، وطَعَنَها بنَصْلِه بين ضلوعها، لتشهق بقوة وجسدها بالكامل ينتفض، يجذب

الخنجر من جسدها بقوة أكبر لتصرخ صرختها الأخيرة قبل أن تسقط جثةً هامدةً، فيعودُ للسيارة ويبعد عن المكان!

***

(٤)

سكنت حياة جمال وريم بعضَ الوقت، حاول جمال فيها إقناع نفسه أن ما حدث لريم مجرد معجزة من الله، حاول نسيان أو تناسَى بتعبير أدق زيارته المشئومة لتلك القرية ومشاهدته لطقوس العصور الوسطى تُنفَّذُ أمام عينيه. كان يعلم أن أمره لم ينتهِ بعد، وأنه سيُقابلُ جسام مهما يطل الوقت، وأن شفاء ريم بتلك الطريقة سيكون له مقابل، ومقابل ليس باليسير دفعه، في تلك الليلة لم يتمكن جمال من النوم، فمَكَث في فِراشِهِ يرمق ريم ببشرتها التي بدأت تعود لنضارتها من جديد بعد عدة أسابيع من تلاشي مرضها الخبيث.

حاول جمال مخاطبة الجميع ليحصل على جواب طبيٍّ يحمل تفسيرًا عن شفائها بهذه الصورة، فلم يحصل على إجابات قاطعة، فمنهم من أخبره أنها أُصيبت بفيروس مُطوَّر لمرض الحصبة، فصار يهاجم الخلايا السرطانية. ومنهم من أخبره أن مناعة زوجته صارت أضعاف أضعاف البشر الآخرين، وهاجمت ذلك الكم من الخلايا الخبيثة وثانوياتها. كان يعلم أن ما يقوله هؤلاء لا يمكن الحدوث مع سرطان في المرحلة الرابعة، وأن أغلب أدوية تلك المرحلة مجرد مُسكنات للآلام حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

-"حساك متغير من يومها، كأنك مش فرحان."

-"طبعًا فرحان!"

رَمَقَت الألم في عينيه، ونظرات الحزن التي تسيطر عليه باستمرار، فحاولت الاقتراب منه، ومداعبة خديه بشكل حانٍ، فتراجَعَ قليلًا عنها، فاحمرَّ خدَّاها خجلًا، فحاولت التخفيف عنه مجددًا..

-"الكابوس انتهى خلاص.. عارفة إنك خايف تكون بتحلم."

-"فاكرة بلال؟!"

تعجبت كثيرًا من ذكر ذلك الاسم في تلك اللحظة، فأومأت بالإيجاب فأضاف..

-"مكنش مجنون.."

-"تقصد إيه؟!.."

نَهَضَ من الفِراش، وجلس مخرجًا سيجارة وشرع في إشعالها، وسحب منها نفسًا طويلًا وأخرجه ببطءٍ يفكر في حماقة حديثِه، ولكنه لم يُقاوِم الصمت أكثر من ذلك، فطالما كان يعجز عن كتم الأسرار عنها، فترك زمام الأمور تنفلت من بين أصابعه، ونَطَقَ ما بداخله دون تفكير أكثر..

-"علاجك مكنش مجرد معجزة من ربنا!"

ظلت صامتة غير فاهمة حديثه فأضاف..

–"كانت معجزة فعلًا.. بس من الشيطان!"

صمت كلاهما لحظات بعدها أردف جمال..

–"ما هو الي اتخلى عني، خلاني أبيع نفسي له.."

قالت ريم بعد صمت طويل..

–"جمال إنت عملت إيه عشان أخف؟!"

–"هحكيلك عشان مش قادر أكتم السر ده جوايه أكتر من كدة، بتعذب وأنا عارف إنه هيجي يوم وهدفع التمن".

اقتربت ريم من زوجها وجذبته نحو صدرها، وداعبت شعره بأناملها، وطلبت منه الحديث فانصاع لها..

–"أسابيع وشهور بدور على أي علاج في أي مكان في العالم حتى لو مش متأكدين من آثاره الجانبية، قمة يأسي وصلتني إني أجرب فيكي علاج منعرفش ممكن يحصل إيه بعدها، يومها اتفتح فيديو لجيهان.. متهمة بقتل أخوها، حكت عن الشيطان .. جسام.. قالت إنه شفاها من العمى، وبعدها أخد روحها وبقت منتظرة حكم إعدام لجريمة عمرها ما عملتها، جسام مكنش المرة الأولى الي أسمع اسمه منها.. بلال.. قولتي إنه مخاوي جان اسمه حسام.. أظنك اتلغبطي يومها، اسمه جسام.. قريت في مذاكرت بلال عن بيته

الملعون في قرية في المنوفية، روحت هناك وأنا كل هدفي إني أقابل الشيطان، أتوسل له إنه يديني العلاج.. مهما كان المقابل كنت مستعد أدفعه عشان مقدرش أتخيل الحياة لوحدي.. حاجات كتيرة كانت بدعم وجود جسام.. ومكنش ينفع أتجاهل الأمل حتى لو كان الأمل مصدره الشيطان نفسه!"

***

حينما وصل جمال القرية، وجميع مكبرات الصوت تعلو بالقرآن خوفًا من كيد الشيطان الذي حرق بيوتهم والذين شرعوا في سحق ابنيه نور الدين وعمر، كما ظنوا، انتهى الأمر بكارثة كبرى، ومهمة غير مكتملة وخراب لحق بهم جميعًا. جمال يمر بين البيوت بعد أن طُليت بالسَّواد أثَرَ الحرق الذي اجتاح القرية بفعل خادم الجان همَّان الذي أحضرته سارة من عالمه معاونًا لها في أمور عدة، وكَّلها بها جسام تباعًا مُقابل شيءٍ لا يعلمُه غيرها الآن. جمال يمرُّ بين البيوت يحاول سؤال أحدهم عن البيت المقصود، ولكن المكان خالٍ من البشر، صارت الدقائق تمرُّ وهو يتحرَّكُ دون توقُّفٍ بخطواتٍ تزدادُ كلما اعتاد المكان وآلفه حتى رأى على مقربةٍ منه من ساقطٍ أرضًا في حالة ظنها في البداية إغماء، ولكنه بعدها علم أنه فارَقَ الحياة من شكل رقبته المهشمة، شَعَرَ برعشةٍ أسفل ظهر عُنقِه وهو يُمسك

بمحفظتِه الساقطة بجانبه وفَتحَها، وكان بها بطاقةٍ تحدِّد شخصيتَها فكان اسمه صابر شكري.

دَخَلَ جمال مدخل البيت لم يأخذ وقتًا حتى عَرَفه من تلقاء نفسه كان أكثرهم ثباتًا وحداثةً أقلَّهم حدة في آثار الحرق، رغم إضرام أهل القرية نيرانًا به صعد السلالم، وعقله شِبهُ خالٍ من الأفكار، فلم يُفكِّر حتى الآن بعد دُخول البيت، ماذا سيفعل إن لم يجد جسام، ولكنه أكمل على كل حال، وكانت الشقة الأولى مفتوحة فحين اقتحمها أهل القرية، وساقوا نور الدين وعمر لإعدامهما بقيادة سارة، تركوا الشقة مفتوحة، وبذلك تكون سهلة الاقتحام من جانب جمال.

من غرفةٍ لأخرى يتحرك جمال وهو يسترجع كلمات مذكرات بلال عن إزهاق العديد من الأرواح بهذا البيت بداية من الشيخ حسن الذي راح ضحية مقابل كشفه الحقائق مُرورًا بسارة الفتاة التي اختل عقلُها تمامًا بالبيت وغيرهما.

-"جسام.. أرجوك.. عارف إنك سامعني.. أرجوك أظهر.. جسام.."

أخرجَ من جيبه ورقة قد سَبَقَ أن اقتصها من المذكرات عن الكلمات التي منحها جسامُ بلالَ وهي إحدى الطرق السريعة لاستدعاء جسام، وبدأ في نطُقها كلمة خلف الأخرى مرتين متتاليتين بعدها توسَّل..

–"جسام.. أنا قادر أعمل الي بلال عجز عنه.. بس اشفيلي ريم.. لا ربنا ولا الطب نصفوني بس متأكد إنك هتنصفني.."

صمت تام حوله، لا حركة، لا إشارة توحي باستقبال جسام الاستدعاء. وجمال لا يكل أو يمل مرت ساعتين في مناجاة الشيطان من بكاء لصراخ لزعيق لهدوء إلى أن أيقن أنه لا فائدة سوى ملازمة ريم في الساعات الباقية فالأمر انتهى وجسام شيطان دائمًا يترك من يحتاجه في أعتى لحظات الاحتياج، وجمال يصطحب عارًا كبيرًا في لحظةٍ فكر بها في الاحتماء من أقدار الله بمساعدة أحد أحفاد إبليس

***

–"ما جايز صدفة يا جمال.."

–"وكلام جيهان.. جسام شفاها من العمى قبل ما يضيعها، وساحرة القرية وهي بتحرق الظابط والشخص التاني الي كان معاه، والساموراي الي نزل من السما، وحريق القرية، وبلال نفسه!.. ريم أنا شوفت كل دا بعيني، إحنا هندفع تمن الي حصل ده غالي أوي يا ريم"

قال ابن بوران لقرينه جسام..

–"لم تيأس قط، رغم أنني تسببتُ في إفشال خُطتِك عدة مرات!"

جسام..

–"لا تمنح نفسك أكثر من قدرك.."

ضحك ابن بوران..

–"جندي.. قلعة.. فيل.. فارس.. وزير.. تحتاج نقطة دماء من كل رمز حتى يكتمل طقسك في منح السامري حُريتَه، فدعنا ننظر فيما تملك، لديك بلال الجندي، لديك سارة هي القلعة، لا تملك الفيل حينما رفض عمر أن يقتل نور الدين فشذَّ عن الطقوس، ونجا بنفسِه من ذلك الأمر، كنت أحسبُ في البداية أن نور الدين هو فارسك، ولكنني عندما رأيتك تشرعُ في قتلِه علمتُ أنه رمز البراءة الواجب موته على أيدي الفيل.. إذن أنت بلا فارس! ولا فيل!".

أومأ جسام موافقًا على أغلب تحليلات ابن بوران الفارسي..

–"أخيرًا تعترف أنك لا تفهم! سأفسر لك القليل.. فعلًا عمر كان أذكى مما تخيلتُ ونجح في الهروب، ولكن كأن الأقدار تَدْفعني دفعًا لتنفيذ مُهمَّتي، فكان الفيل البديل بل الأفضل هو جمال.. أتذكره؟! الطبيب الناجي.. لا أعلم لماذا تركتُه أنت يومها يهرب؟"

فسحبته ذكرى لواقعة خروج كليهما من المقبرة قبل بداية الألفية الثالثة ببضعة أيام..

**

–"جيسى.."

–"المقبرة ديه غريبة.."

–"دايمًا حاسس بالخطر.."

–"ماتت عشان شافت أكتر من اللازم.."

–"سامحني أرجوك.."

من كتاب الثالوث

***

عاد ابن بوران لحاضره وحرَّك فارس جيشه وقال..

–"تعلم أنني لم أقصد قتلهم، أنت مَنْ كنتَ تُسيطر على جسدي يومها وشرعت في تقطيعهم إربًا.. أنت من ترك جمال على قيد الحياة"

أومأ جسام وقال ساخرًا..

–"أنا لا أعلم لماذا تركته؟! مُحتمَل لأنني أردتُ من يسرد القصة، أردتُ مَنْ يحكي لهم عنك أو عني أو عن كلينا.."

–"وكيف ستقنع جمال بقتل رمز البراءة؟!"

فرد جسام..

–"جمال فعلها بالفعل!.."

صُعق لسماعه لتلك الكلمات، وشعر أن هناك الكثير من أُحجيات اللُّعبة قد فاته في الأيام الأخيرة، ولكنه ما زال غير مصدق أن جسام قد أتم خُطوة جديدة في سرية تامة دون أن يُلاحظها هو رغم مراقبته التامة له..

-"متى؟!"

ضحك جسام وأطاح بفارس ابن بوران الفارسي بوزيره..

-"الليلة نفسها التي تم الهجوم عليك فيها.. جيهان!"

***

مر أسبوع آخر دون أي تغيير في حياة ريم وجمال، ساد السكون وعادت الحياة لسابق عهدها، لم تكن ريم تصدق الأمر بصورة حرفية، ولكنها على أي حال لم ترد جرح مشاعر جمال، فتعلم كم الضغوطات النفسية التي مر بها في الأشهر الأخيرة، وهو يحاول تَقبُّل فِراقها القريب، فقررّت التحمُّل وأن تكون لها سندًا وعونًا كما كان هو سابقًا.

لكن في تلك الليلة تبدَّل كل شيء، خرجَ جمال من غُرفته نحو دورة المياه وبدأ في الاغتسال صباحًا، فرَمَقَ تلك الكتابة الدموية على الحائط..

كانت هيئتُه في تلك الأثناء يُرثى لها كثيرًا، فحاول نداء ريم لتشاهد ولإثبات لها صحة حديثه عن عهده مع الشيطان لبثِّ الحياة فيها من جديد بعدما تعانقت مع الموت ولكنها لم تسمع نداءه، وأخذت الكلمات الدموية تتلاشى من تلقاء نفسها.

حينما خَرَجَ جمال من دورة المياه وجسده ينتفضُ أخذ يبحث عن ريم بالمكان فوجدها بالشُّرفة تنظر للسماء بعينين صافيتين، فما إن رَمَقَتْهُ قادمًا نحوها ابتسمت بوجه طفوليٍّ، ابتسامتها أجبرتْهُ على كتم كلماته داخله والعودة لإخفاء الأسرار عنها من جديد..

في يوم الخميس التالي لتلك الواقعة –بعد خمسة أيام– قررت ريم الذهاب لزيارة إحدى صديقاتها، بينما مكث جمال وحيدًا بالبيت ينتظر اللقاء مع الشيطان، فقد كان يعلم بصورة شبه يقينية أن الشيطان سيستغل وحدته بالمكان وسيظهر له ليطلب ثمن شفاء زوجته، ولكنه لم يظهر يومها قط، واكتفى بترك بقعة دموية أخرى على أحد الحوائط..

(هل أنت مُؤَهَّل بدفع ثمن بقائها؟!)

صرخ جمال في تلك اللحظة..

–"نعم.."

تلاشت الكلمات وظهرت بديلة عنها..

(إذن لنا لقاء آخر قريب..)

اللقاء التالي بين جسام وجمال لم يكن رمزي كاللقاءات السابقة بل تجسَّد له الشيطان في هيئة طفلة لم تكمل عقدها الأول بعد أن حاول مُداعبتَها من نافذة سيارته فرأى عينيها خالية من الحدقات وهمست بكلمات فصحى..

–"جيهان، اقتل جيهان!.. قصر ابن بوران"

رفع جمال عينيه ليرمُقَ السيدة التي تمسك بيد الطفلة، فوجَدَ أبشعَ هيئةٍ ممكن أن يراها امرؤ، فقد كانت سيدة ذات بشرة شديدة البياض ممتلئة بالتجاعيد ذات عينين معتمين، شاهد الشيطان بالصورة نفسها التي سبق وحدثه أبوه عنها. لم ينتظر المزيد من الوقت، أدار محرك سيارته وانطلق مبتعدًا عن المكان بسرعة.

***

قال جسام..

–"وحينما خرجت جيهان من بيتك لم تبعد عنه كثيرًا حتى كان سكين جمال مغروسًا في قلبها.. فكانت أول القرابين إلى للملك آشور.. كان سعيدًا بعودة القرابين البشرية من جديد".

ابن بوران..

-"أنت ملعون.."

ضحك جسام..

-"طالما لم أفهم سبب لعنتي؟! حتى الآن ما زِلتُ لم أفهم لماذا أنتم الأفضل؟! طالما كنتَ الأذكى والأكثر دهاءً.. كان لا يجب عليه أن يطلب منا السجود لكم.."

حاول ابن بوران اصطناع الثقة رغم هذا الكم من المفاجآت..

-"مهلًا، ما زال هناك الفارس، لن أدعك أبدًا تُتِمَّ ما بدأتَ فيه"

ضحك جسام بصورة أكبر..

-"الفارس كان جاهزًا منذُ اللحظة الأولى.."

اتسعت حدقتاه..

-"مستحيل، أن تكون فعلتَ هذا.."

بغرور أضاف جسام..

-"الفارس هو المساعد الأكبر في تحرير السامري، فهل هناك مساعد أعظم من منحني الفكرة؟! هل هناك فارس أعظم من تلميذ السامري النبيل؟!"

تذكَّرَ لماحات من الفترة الماضية، تذكَّر هجوم الجان الأحمر لأخذ دمائه لتنفيذ المرحلة الأخيرة من الطقوس..

–"الدماء!، يوم الهجوم لم يكن للتشتيت.. بل لتحصل على دمائي.. نعم.. هذا سبب مُقنعٌ وكافٍ للملك آشور.."

ضحك بقوة جسام..

–"دائمًا تصل فكرتي متأخرة كثيرًا.."

بصدمة قال ابن بوران..

–"أنت حررتَ السامري بالفعل!"

أومأ جسام..

–"والمرحلة الجديدة بدأت الآن.."

بأسًى ويأس أردف ابن بوران..

–"القتل! ستبدأ بتقديم القرابين ليستعيد السامري كامل قوته ومخطوطاته الضائعة وتقديم الولاء للجان الأحمر والوصول للجيش!"

رد جسام موافقًا الحديث..

–"بالفعل، هذا ما أسعى إليه.. ولكن قبائل الجان أصروا على أن يكون الفارس أول القرابين."

بتوسل قال ابن بوران..

-"جسام.. يجب أن تتوقف الآن، الأمر صار يخرج عن سيطرتك، أنت تبدأ أعظم حرب في التاريخ، السامري صار غير متزنٍ وحينما يمتلك الجيش لن يرى سوى الانتقام.."

بجدية قال جسام...

-"الحرب بدأت بالفعل مراش.."

كانت الصورة أمام عيني ابن بوران الفارسي بدأت بالارتعاش، وتمايَلت الجُدرانُ من حوله، وشعر بالأرض غير متزنة، وحتى جسام نفسه بدا له يتراقص أمام عينيه، يعلم ذلك الإحساس سبق وشعر به قبل أن يتم أسره على أيدي الجان الأحمر، فهم في تلك اللحظة أن جسام وضع له السُّمَّ في مشروبه حتى يكون أول القرابين المُقدَّمة للملك آشور..

-"السُّمُّ بدأ يتحرك في دمائك.."

نَهَضَ جسام من مكانه وتحرَّك مُبتعدًا نحو طريق الكباش وسقط ابن بوران أرضًا، ومعه رقعة الشطرنج والقِطع تتناثَرُ حوله، ورُوحه تبدأ في الانسحاب منه، وشعور بالشلل في أطرافه السُّفلية..

-"جسام أرجوك.."

أشار جسام لحراس المكان..

-"اقتلوه.."

تقدم اثنان من الحُراس مشهرين سيفيهما نحو ابن بوران الفارسي، بألمٍ قال ابن بوران..

-"الجان لا يقتل بشريًّا أبدًا.."

دون أن ينظر جسام له أجاب..

-"لم تعد قبيلة الجان الأحمر تخشى انتهاك القوانين، إنه عصر جديد.."

دسَّ الأول سيفه في كتف ابن بوران فكتَمَ صَرخته، فثبَّت الآخر سيفَه في قلب ابن بوران مباشرةً، وكلاهما يُتمتِمُ بالكلمات التي تساعد على فناء ابن بوران وإبطال أي سحر قد يستعين به في تلك اللحظة، علم ابن بوران أنها النهاية حتمًا فاستسلم لها وصار ينغمس داخل ثنايا الموت تدريجيًّا حتى غاب داخله، وما تبقى من ابن بوران في معبد كرنك مجرد جثة هامدة.

الجيش

(٥)

انشقت السماء بالبرق، واقشعرت الأبدان من برودة الحرارة رغم ثقل ما يرتديه جميعهم من ملابس صوفية ثقيلة، كانت الأجواء حينها – منتصف يناير– مختلفة عن الأعوام الماضية، فشهدت البلاد موجة من الطقس العارم، وقاربت درجات الحرارة الصفر وصارت الثلوج تتساقط يوميًّا لتغطي الشوارع، في مظهر أوروبي نادر الحدوث، في شوارع الإسكندرية والقاهرة. رغم كل ذلك كان الدفء سيد الموقف، في (عوامة) حلمي عبد الوهاب، فيها تعانقت سحب الدخان فصارت شبورة تحجب أغلب الرؤية لجمع الحضور، تعالت الضحكات، في المكان وتلاشى وعي العُقول وصارت البلاهة والأحاديث غير المنطقية هي عنوان الحدث، تعالت صيحات الرعد وبدأت الأمطارُ في السقوط، وآدم يُتابع المشهد من خلف النوافذ الزجاجية التي تُغطي أغلب المناطق العلوية..

–"هاتلي دليل واحد على وجود ربنا.. حروب، مجاعات، أطفال بتتقتل كل يوم بلا ذنب، فتقدر تقولي فين ربنا؟! يقدر ينسف البشر كلها، في لحظة، ليه اتأخر أوي كده؟!"

قالها آدم بعدم اهتمام وسط عدد من الأصحاب وهو يسحب نفسه الأخير من لفافة تبغه غير الشرعية التي تشارف على إحراق إصبعيه، وأخرجَ دُخانه ببطءٍ، فارتعشت الصورة أمامه لحظات، فلم يكن يملك القُدرة حينها على تمييز عدد الجالسين معه من خلف السُّحب البيضاء المحيطة بالمكان فلم يهتم أكثر، وسَحَبَ نَفسًا آخر وألقى بعدها السيجارة بعيدًا، ورَجَعَ بظهرِه نحو الخلف مُستلقيًا على الأرض مُتأمِّلًا السماء من النافذة الأمامية الكبيرة..

–"فين السماء؟! هل كان المقصود بيها الغلاف الجوي؟! الفضاء؟! إزاي السماء مرفوعة والأرض أصلًا كرة مُعلقة في اللا شيء!"

أنهى بقية حديثه الإلحادي بعدها شرعَ في الضحك من تِلقاء نفسه فنَظَرَ له الجميع في صمتٍ بُرهةً مراقبين ردود أفعاله المتناقضة مع بعضها البعض من الجدية الحادة للضحك والسُّخرية من اللا شيء، فانطلقت من أفواههم ضحكاتٌ عاليةٌ بصوت هائل، وهَمَسَ أحدُهم مُحركًا رأسه في تناغُمٍ مع صوت أم كلثوم الخارج من السماعات المعلقة على أحد حوائط العوامة..

–"الواد آدم راح هناااك خالص... قولتلكم الواد ده ضعيف والصنف ده هيضيعوا، ده أنكر كل حاجة بعد أول سيجارة، سيجارة تانية وهينكر وجودنا معاه.."

ضحكوا جميعهم من جديد في صورة مبالغ فيها لا تليق مع الكلمات، فرَمَقَ آدم جميعهم بنظرة ساخرة واستنشق الدخان سلبيًّا من المُحيطين به وأردف بغُرور..

-"الصنف بتاع النهاردة مضروب، مستغرب إزاي محدش فيكم أخد باله من ده.. تعرفوا.. في أوقات بحس إنك ممكن توصل لإحساس الانتشاء بدون أي مُخدر.."

رد أحدهم..

-"قصدك إن الكيف نفسي؟! جو القاعدة.."

أجابه آدم بمللٍ كما لو كان مُتوقعًا تلك الكلمات..

-"لا، مقصدش كده بالظبط.. أقصد إنك تسيطر على نفسك لدرجة إنك تبدأ تتحكم في كل هرموناتك، حتى هرمون السعادة.. تتحكم في نفسك لدرجة إنك تتبسط لدرجة الهلوسة.. تتحكم أكتر، تعليه أكتر وأكتر توصل للموت.. منتهى السعادة والراحة.."

لم يسمعه أحدٌ تقريبًا أو لم يفهم أحد كلماته الأخيرة، ولكن اهتمامهم الأكبر كان عن حديثه عن زيف ذلك المخدر المستخدم في تلك الليلة.

تحولت له الانظار باندهاش، وقد استفاقوا جميعًا من جو الهذيان المُصطنع على هذه الكلمات، وشَرَعَ أحدهم في سحب النفس تلو

الآخر للتأكُّد من حقيقة ذلك الأمر، وآخر وافقَ آدمَ على حديثه، بينما الأخير شَرَعَ في الضحك ساخرًا من نفسِه لكونه بدأ في الحديث عن هرمونات الجسد معهم.

بينما قال حلمي وكان واضحًا عليه التقدُّم في العمر قليلًا عن الباقيين..

-"شوفتوا التعليم بيفرق إزاي، حتى في المخدرات قدر يطلع الأصلي من المضروب في لحظة.. مش مغفل شبهكم.. رغم إنها أول مرة تشرفنا، إلا إنك والشهادة لله دخلت قلبي.."

أومأ آدم موافقًا الحديث في اعتزاز وثقة بالنفس فأضاف حلمي ..

-"إنت إيه حكايتك؟!"

اصطنع آدم عدم الفهم فأردف حلمي ..

-"صحيح إنك مختلف، وواضح إنك ذكي، ممكن تكون صادق في كلامك.. بس إنت وراك حاجة، احكي.. طالما عاوز تكون واحد مننا قول الي جواك"

سأله آدم مستنكرًا كلماته..

-"هتفرق؟!"

تفهم حلمي رغبة آدم في الصمت، فلم يلح عليه وتركه متقينًا تراكم الأسى والحزن داخله. كان يعلم أن مقدار الغضب داخل ذلك الفتى وصلت لدرجة عدم احتماله مما سيدفعه حتمًا لسرد جميع أسراره بالمكان قريبًا..

ابتسم آدم بغرور وهبَّ واقفًا متجهًا بعيدًا عن المكان حاملًا سُترته بيده ووضع نظارته السوداء لتُخفي ملامح عينيه اللتين لم تسلما من آثار الإدمان وقذف ببعض الأموال أرضًا أمام أحد الجالسين ورَحَلَ دون النظر لهم مجددًا.

خرج آدم من العوامة وعبر الطريق الخالي من البشر حتى وصل للطريق الممهد، وأخذ ينظر إلى الشارع والبيوت تتراقص أمامه لارتعاش حدقتيه، فأغلق عينيه بقوة وضغط على جفنيه بكلتا سبابتيه وصوت الصداع يتعالى داخل رأسه، فيحفز رغبة جامحة في أن يلقي بنفسه تحت أقرب سيارة قادمة، ولكنه يمنع نفسه لسبب لا يعلمه وكأن قوة تجبره على أن يبقى ويُحارِبُ للبقاء حتى إن كانت أيامه المتبقية ليست بالكثيرة، بعدما ظَلَّ شهورًا يتحرك بين الأطباء، في جميع المجالات دون أن يمنحه أحدهم إجابة وافية..

***

-"دايمًا بحس إني مُسافر.. مش مسافر بالمعنى الطبيعي، لأ.. عارف إحساس إن روحك برة جسمك، بحس إن أنا قادر أخرج من

جوايا.. وقتها مفيش قانون فيزيائي بيحكمني، طاير في كل مكان.. وكل ده بينتهي في اللحظة إلى أن أقرر فيها الرجوع لجسمي تاني.. عارف إن كلامي ممكن يكون جنون، بس ديه حالتي .."

–"متعتبرش كلامك غريب، ديه مجرد أحلام يقظة، تهيؤات.. هكتبلك على شوية أدوية هتتحسن عليها والحالة ديه هتروح منك قريب.."

***

–"مفيش فايدة، وبدأت أحس أن خروجي من جسمي مش قيد تحكمي زي زمان.."

–"آدم، مشكلتك من جواك.. إنت سليم!"

***

–"من إمتى بدأت تظهر عليك الأعراض ديه؟! والبقع الي في جسمك ديه ظهرت إمتى؟!"

–"قريب.."

–"لازم تعمل الفحوصات ديه، بسرعة يا آدم".

***

–"إنت مريض بالإيدز!"

***

الفحوصات الأخيرة تثبت بقوة أن رحيله عن العالم لن يستغرق الكثير، بل تخبره أيضًا أن رحيله لن يكون هادئًا، بل سيشاهد الكثير من الآلام، في الأسابيع التالية، كما ستجعله منبوذًا من الجميع ليرحل وحيدًا، شريدًا، متألمًا..

يمشي آدم في شوارع الإسكندرية غير ثابت الخطوات، غير مستقرٍّ، لم يترك أحدًا بجواره إلا واصطدم به دون وعيٍ، النوم يضرب به بكل قوة وآدم يصر على البقاء متيقِّظًا أن ما بَقِيَ له ليس بالكثير يضيع منه في النوم يسبحُ مع أفكاره حتى تأخذه قدماه إلى أحد شواطئ الإسكندرية.

يجلس على أحد أسوار الشاطئ، ويُخرج الساندوشات التي قد سبق وابتاعها صباح اليوم من أحد المطاعم شديدة الشهرة بالمدينة، والمعروف عنها في الوقت ذاته استخدام اللحوم الفاسدة في الطعام، ويبدأ في التهامه مغلقًا عينيه يُداعِبُ كل جزءٍ منه بفمه مُستطعمًا إياه بتركيز شديدٍ، وصوت اصطدام الأمواج، في الصخور يتعالى في أذنيه ورائحة اليود تتملك أنفه فيشعر بحالة انتشاء أعظم من انتشاء المخدرات، يضحك في غرور لأن العالم يثبت نظريته عن التحكم بالجسد التي سبق وقصَّها عليهم في العوامة ولم يفهمها أحد قط، بعدها يشعر بغضب عارم عن قُرب أجله، كأنه يلوم الموت على

محاصرته من جميع الجوانب والمكوث عن قُربٍ مُستغلًّا أقرب فرصة للانقضاض عليه، فتتسرَّب لجسده رعشة ليس لبرودة الجو، ولكنها كانت رعشة خوف، الخوف من الرحيل، ولكنه تغلَّب على ذلك الإحساس سريعًا وعاد للانتشاء من جديد.

يضرب البرق السماء ولم تمر لحظات حتى اشتدت أمواج البحر والمطر يسقط بقوة كالسيول، وآدم فاقد الإحساس، ولم يعكر مزاجه طعامُه المُبْتَلُّ، وحاوَلَ الاستمتاع به حتى النهاية، ولكن القدر أيضًا يرفض تركه لحاله، وسمع نُباح الكلب أمامه ناظرًا بنهمٍ تجاه طعامه، ويستعدُّ للانقضاض عليه إذا لم يفعل آدم ما يجب عليه فعله..

نظر للساندوش وابتسم للكلب وقال..

–"نفسك فيه؟!.."

نبح الكلب كأنه على دراية بحديث آدم متمسِّحًا بجسده في قدميه..

–"تعرف زمان كنت فاكر الي بيعوز حاجة الفلوس تقدر تشتريها.. كنت فاكر إن الفلوس هي الحل لكل مشكلة في الدنيا، كنت فاكر إن بالفلوس هبقى قوي، هبقى عظيم، كنت فاكر الأمان في الثقة بالنفس.. كنت فاكر حاجات كتيرة، قالولي أما تعوز حاجة اجري عليها وأما جريت على الدنيا حصلي كده!"

رَكَلَ آدم الكلب بكل قُوته إلى منتصف طريق البحر لتصدمه إحدى السيارات الفاخرة، والتي سرعان ما تعالى صوت احتكاك إطارها بالأرض وتوقفت وخرج منها أربعة شباب يبحثون عن الكلب جاهلين أنه تحت سيارتهم، ولكنهم جميعًا ينظرون لدمائه المتساقطة على الأرض بأسى وحزن مبالغ فيه قليلًا قبل أن يهبوا مُسرعين ليرحلوا ويكملوا رحلتهم..

***

"حاااسب!"

"لا حول ولا قوة الا بالله شكلي خبطت كلب."

من كتاب لعنة جسام

***

رفع آدم رأسه للسماء وقال..

– "الكلب مات!.. أنا قتلته، مين المذنب أنا ولا هما ولا الكلب نفسه إنه اختارني؟!"

ألقى ما تبقى من طعامه في صندوق المُهملات وتحرَّك محتضنًا نفسه وقد اشتدَّ الجوُّ برودةً ودخل أحد الأزقة الضيقة جالسًا على أحد الأرصفة مُختبئًا من المطر..

- "خلاص يئست؟!"

وجد آدم بجانبه رجلًا بلغ به العمر أقصاه جالسًا على كرسيٍّ خشبيٍّ مُخبِّئًا رأسه بين يديه مرتديًا قفطانًا أسود ذا أطراف ذهبية لامعة، متكئًا على عصا خشبية قديمة لا تُناسِبُ ملابسه الخلابة..

تجاهل السؤال في بداية الأمر ولكن العجوز أصرَّ بتكراره نفس السؤال ولكن بصيغة مختلفة..

- "بس إحنا معرفناش اليأس غير لما كبرنا وحسينا أن الموت نسينا.."

ابتسم آدم للكلمات بحسرة وأجاب وهو يتمدَّد بظهره على الرصيف وينظر للسماء..

- "الظاهر إني أخدت مكانك في ليستة عزرائيل.."

الصمت حل بالمكان بعد أن توقفت السماء عن إرسال أمطارها..

- "لو علاجك معايا.. توافق تخدمني الي فاضل من عمري؟!.."

ضحك آدم بصوت شديد الضخامة هذه المرة وهو يستند بيده على الرصيف ليحاول اتخاذ وضعية الجلوس غير مبالٍ بالمياه ولا الطين مُجيبًا..

– "والله يا حج مش بعيد أبوسك لو تحب.."

بلهجة كلها صرامة لم تثير سوى الضحك لآدم، ردَّ العجوز..

–"أفهم من كدة إنك موافق؟!"

بصعوبة كتم آدم السخرية وعَقَدَ حاجبيه وأجاب..

–"أعتقد إن أنا موافق طبعًا.. حد يقدر يعترض".

نهض العجوز برشاقة وجَذَبَ يد الآخر بقوة ناحيته وهَمَسَ في أذنيه..

–"بتعرف تلعب شطرنج؟!"

عُنف العجوز غير المتوقع آثار الغضبَ في نفس آدم، ولكنه سرعان ما تلاشى عندما سمع سؤاله عن الشطرنج، فقال بثقةٍ وغرور..

–"أنا واخد بطولة الجامعة فيها أربع سنين ورا بعض.."

رد العجوز باسمًا

– "لو كسبتني.. هديك العلاج.. وتمشي ومش هنشوف بعض تاني ومتنازل عن خدمتك ليا"

لوهلة لا يعلم لماذا انتابه شعور بالخوف والرهبة من الأمر وهو مُوقنٌ أنه هُراء، ولكن العجوز نجح بطريقة أو أخرى في جذب انتباه آدم لاستمرار تلك المحادثة الغريبة أو الفريدة من نوعها..

- "أومال لو أنا خسرت؟!.. هتعمل إيه؟"

صمت العجوز لحظات وبعدها أجاب..

- "هديك الدوا بردوا.. بس زي ما اتفقنا وانت وافقت، هتخدمي الفترة الي باقية."

ابتسم آدم ساخرًا وأومأ قائلًا..

- "تمام.. اتفقنا.."

توكَّأ العجوز على عصاه بحركة صغيرة مُرتعش القدمين يتبعُه، يزحف آدم بملل يتأمل هذه الأزقة التي لم يزرها من قبل في الإسكندرية رغم تجوله بها من بحري لأبي قير ولكنه لم يرَ هذه الأماكن التي تمثل مدينة داخل المدينة من قبل إلى أن وصلا لعمارة متهالكةٍ غير جميلة المنظر، من طابقين فقط، وكانت مهجورة وهذا استنتجه آدم في لحظة عندما وجدها خالية من النوافذ، بالإضافة لعتمتها..

كان العجوز يعيش في الطابق الأرضي، وكانت شقته تتكون من غرفة وحيدة في غاية البساطة لا تحتوي على شيء سوى أريكة

مُتهالكة وحصيرة وطاولة خشبية شاعَ السوس فيها، ومنتصب عليها رُقعة شطرنج في غاية الأناقة الكلاسيكية والقطع عليها متراصة بشكلها الصحيح المُعتاد..

-"ياه.. يا آدم بقالي أسابيع أو يمكن شهور مجتش شقتي.. كنت قربت أنساها.."

ذُهِلَ آدم من منظر الشطرنج المرصوص الجاهز للمبارزة، كأن العجوز كان يستعدُّ لهذا اللقاء، أو كان ينتظرُه إن صَحَّ التعبير بعدها تغير تفكير آدم لمنحني آخر حينما لاحظ أن العجوز نَطَقَ باسمه دون أن يخبره به..

- "إنت عرفت منين إن اسمي آدم؟!"

ابتسم العجوز ببساطة وأجاب دون أن ينظر له متحركًا تجاه الطاولة وجلس على أحد الكرسيين وقال..

- "وإزاي معرفش اسمك وانا سنين منتظرك.."

تعتبر هذه أول صدمة ضربت آدم في قلبه ومن غير إرادة شَعَرَ بانقباضة تملكت من صدره وشعر لأول وهلة أنه يصدق الأمر.. أو يريد أن يصدق الأمر..

ذلك العجوز يَدَّعي أنه يملك علاج لمرضه الذي عجز جميع الأطباء عن إيجاد حَلٍّ له أو حتى كبح جماحه الفتاك داخل جسدِه وصارحوا بقُرب أجله..

جلس آدم أمام العجوز يرمُقُه تارة ويرمُقُ رقعة الشطرنج تارة أخرى، وقال للعجوز بلسان مُهتزٍّ كثيرًا عن السابق..

- "إنت مين؟!"

حرك العجوز أحد جنود الشطرنج إلى الأمام خطوتين وقال وعيناه مُتمركزتان على الرقعة..

- "أوعدك هقولك كل حاجة بعد ما نخلص.."

بسرعة حرَّك فارسه وردَّ على العجوز بتلهف..

- "مين بعتك ليا؟!"

سريعًا تقدَّم العجوز بجندي آخر..

-"محدش! محدش يعرف قيمتك غيري.. أنا وانت وبس"

بصعوبة توتَّرَ آدم كثيرًا، وحرَّك فارسه الآخر بشكل عشوائي فقال العجوز..

-"حاول التركيز إنت بتلعب على مستقبلك.. ديه حياتك."

حرك العجوز جنديًّا ثالثًا من جنودِهِ ليبرز أن حركاته عشوائية تتمُّ بدون تفكير فأطاح آدم بأحد جنود العجوز بفارسه..

–"مش عارف أركز.."

رغم تقدَّم سنه إلا وإنه يُحرِّك القطع بسرعة مطلقة وكأنه لا يفكر في خُطواته..

– "صدقني يا آدم.. لازم تكسب علشان ترتاح.. متخفش أنا هتساهل معاك جدًّا.. العب وهتكسب.. اختار علاجك وحريتك.. ولا علاجك وخدمتي.. الموضوع اختيار أكتر ما هو مواجهة في لعبة."

نظرات العجوز الحادة تجاه آدم أثارت الرعب، في قلبه ولأول مرة يشعر بمثل هذا الشعور، وهو يُمارِسُ لُعبته التي طالما تألَّق بها وخَدَعَه بصرُه، وهيأ له جميع القطع أمامه قد هبت بهم الحياه ينظرون له.. يتوسلون له أن ينتصر مهما يكلفه الأمر..

ولكن آدم وضع يديه على رأسه، ونفذت منه صرخة دون سبب، وأطاح بجميع جيشه وصرخ..

– "أنا منسحب.. إنت الكسبان.. إنت الكسبان.."

ظل العجوز قُرابة العشر ثوانٍ صامتًا ينظر لوجه آدم المتعجرف الذي يحاول جاهدًا في إخفاء ذُعره وإبداله بنوع من العصبية

المصطنعة. أخرج العجوز من جيبه زجاجة رفيعة بها سائل أزرق اللَّون ووضعه أمام آدم وقال..

– "اشربه.. ولما تتاكد إنك شفيت.. هجيلك والي هطلبوا منك هتنفذوا.."

خرج العجوز من الغرفة وأغلق الباب خلفه، وأخذ آدم الزجاجة وهَرْوَلَ خلفه فهو أيضًا إلى الآن لم يشبع فضوله، ولكنه عندما خرج لم يجده كأنه اختفى.. وألقى نظرة أخرى إلى الداخل، ولكن المفاجأة أن الغرفة كانت خالية من أي مظهر من مظاهر الحياة، اختفى الشطرنج.. الأريكة.. الحصيرة.. كل شيء سوى زجاجة السائل الأزرق التي تمثل الدليل الوحيد على صِدق ما حدث ولكن السؤال الغريب الذي سيطر على آدم لحظات واختفى من عقلِه..

العجوز حتى لم يسألني عن مرضي؟!

مر اليوم الأول.

وآدم يضع الزجاجة أمامه ينظر لها مرارًا وتكرارًا دون تَناوُلِها..

واليوم الثاني..

استمر الحال نفسه وآدم يُفكِّر في الأمر، يعلم أن تناوُلَ مثل ذلك الشيء يعتبر تصريحًا غير مباشر عن تصديقِه لحديث العجوز، وهذا الأمر بكل تأكيد يعلم أنه سيكون محض هُراء ولن يتغير شيء سوى

خسارته لنفسه ولمعتقداته، وبذلك سيكون خسر آخر ما يملكه قبل وفاته..

اليوم الثالث..

آدم يتمدَّدُ بفراشِه ينظر لسقف الغرفة ووهنٌ يتفشى بجسدهٍ يومًا بيومٍ.. ساعة بساعةٍ.. دقيقة بدقيقةٍ، يحاول الاجتهاد لمقاومة ضعفه فينجح تارة ويفشل أخرى ولكنه يقاوم فكرة الموت بذلك الفراش متألمًا وحيدًا..

ثم أخذته ذكرى عائدة فقد كان أحب إلى قلبه أن ينسى هذه اللحظة التي قلبت حياته رأسًا على عقب..

ما معنى أن تصرفًا لم يستغرق لحظاتٍ يتسبب في دفع حياته ثمنًا له؟!

و كان ذلك قبل ثلاثة أعوام عندما انتصف الليل وعلت أصوات نباح الكلاب، وآدم الهائم الغائب داخل سكره وغياب عقله اليومي الدائم ينظر إلى أصدقائه وهم يُمرِّرون الحقن المخدرة من يد ليد، ومن وريد لوريد..

يتأملهم بشغف وفضول..

– "دماغها أحلى من الحشيش؟!"

نظر إليه أحدهم وكان كبير السِّنِّ، في عقده الخامس تقريبًا وأجاب..

- "مفيش مقارنة نهائي.."

صمت آدم وصمت الجميع، وبدأت علامات الراحة تبرُزُ على وجههم قبل أن تنقلب الجلسة لساحة من الضحك الذي تفشَّى فجأة لسبب غير معلوم، كما هو معتاد دائمًا..

واستمرَّ آدم في مقاومة رغبته الجارفة في خوض التجربة ليقينه أنه لن يكفَّ عن هذا النوع الجديد من المخدرات، ولكن على كل حال طلب الحقنة..

أمسك الحقنة المليئة بسائلٍ أبيض يميل قليلًا للصفرة ملطخة بقطرات دموية طفيفة

- "مفيش واحدة أنضف من ديه شوية؟!"

أجاب صاحب العقد الخامس مجددًا بسخريةٍ وهو يلقي ناحيته بحبل جلدي أزرق اللون لربط زراعه ..

- "ما تسترجل بقى واضرب.. محنا بقالنا شهور بنضرب مكان بعض".

نفذ الأمر..

وتلوَّثت دماؤه بالإيدز..

ومن هنا تغير كل شيء حين شاهد جسده تُهاجِمُه بعنف بعضُ البقع الحمراء التي تفشت في جسده بعدها بعدة شهور، وعرض عليه أحد الأطباء بسرعة إجراء بعض الفحوصات التي اصطدم بنتيجتها الأطباء..

- "متلازمة الجهاز المناعي!"

ردَّ بفزعٍ غير مصدقٍ ما يسمعه:

-" إيه .."

رد الطبيب بشكل صادم مؤكدًا..

- "إنت عندك إيدز.."

انتفضَ جسدُ آدم وانقطع حبل أفكاره المؤلم عن زيارتِه اليومية المعتادة بصوت هاتفه المزعج، جذب هاتفه وبرز أمامه اسم الطبيب، تجاهَلَ الاتصال وأغلقَ الهاتف وحاول النوم، ولكن حالته التي سبق ولقَّبها الطبيب بأحلام اليقظة عادت له من جديد..

فرأى نفسه يطير فوق حمم بركانيةٍ، شعر بالخوف في اللحظات الأولى خشية السقوط فيها، ولكنه بعد ذلك لاحظ أن حرارتها لا تحرقه، بل كانت تبثُّ به شيئًا من القوة، ثم تحرك بسرعةٍ غير متحكمٍ بحركته، كأن قوة ما تدفعه في طريق طويل، انتهى بنفقٍ مظلمٍ

ينتهي بضوء خافتٍ في نهايتِه، حينما وصَلَ وَجَدَ نفسه يقف أمام فتاة مقيدةٍ تصرُخُ..

-"سيدي فكني.."

يجد العجوز نفسه الذي سبق وقد شاهده يتحرك ناحيتها مُخبِّئًا خِنجرًا خلف ظهره..

-"سيدي.."

يرفع العجوز يده في الهواء ليهبط بها مهشمًا قفصها الصدري..

استيقظ آدم شاهقًا شاعرًا بالاختناق ودقات قلبه تتسارع، يزداد الاختناق فيصبح عاجزًا كليًّا عن التنفس فيحاول النهوض فزعًا فيسقط أرضًا، فيزحف بصعوبة نحو الزجاجة التي منحها إيَّاه العجوز.. لا سبيل أمامه سواها الآن، يزحف نحوها وكله أمل ورجاء أنها تحمل شيئًا داخلها تمنحه بعض القوة أو تُخلِّصُه من موته المُحدِق الحدوث.. يزحف نحوها ضاربًا عرض الحائط بكل فكرة آمن بها، يعلم أن إيمانه بالشيطان والسحر هو اعتراف ضمني بوجود الخالق يمسك الزجاجة في يده، ويزيل عنها غطاءها ينظر لها لحظاتٍ يشعرُ بشللٍ في أطرافه السُّفلية في عُجالةٍ يبدأ في تناول ما فيها حتى آخر قَطْرةٍ.. ولكن الشلل يستمرُّ وتلتفُّ قدمه اليسرى حول اليمنى شاعرًا باضطراب في دقات قلبه وهي تتباطأ تدريجيًّا..

يعلم حينها أن العجوز خَدَعَه وأن السائل مجرد هراء..

يستسلم ليسقط أرضًا يحاول الصراخ، ولكنه يعجز عن ذلك..

يُحاولُ مجددًا لينجح في إطلاق صرخة ذات صوت هزيل لتتوقف دقات قلبُه..

***

حينما فَتَحَ آدم عينيه بعدها، لم يعد في شقته بل وجد نفسه بالمستشفى..

– "حمد الله ع السلامة.. يا.. آدم صح!؟"

تجاهَلَ آدم السؤال ونَظَرَ للسيدة الواقفة بجانب الطبيب، كانت جارته الأربعينية شهد غير المتزوجة وعشيقته السابقة قبل امتناعه عنها منذ إصابته بمرضه دون عِلمها بالسبب..

– "أنا فين؟"

شرع الطبيب في إجابته فقطعت شهد الحديث..

– "لما سمعتك بتصرخ في شقتك طلبتلك الإسعاف."

حاول التعديل من وضعيته وفي جسده بقايا ألم متلاشٍ وحيوية منبعثة بداخله لم يعتدها منذ مدة طويلة، كان يستشعر قوى الشفاء في دمائه، كان يشعر بشفاء كبده ودمائه من فيروسه الأبدي..

– "أنا الدكتور أسامة الشاذلي.."

رَمَقَه آدم بسرعةٍ قبل أن يقول لشهد بصرامة..

– "أنا عاوز أتكلم مع الدكتور لوحدينا يا شهد لو سمحتي.."

انسحبت شهد بخجل من المشهد بينما سأل آدم الطبيب بتلهف..

– "أنا كويس؟!"

نظر أسامة للباب الذي خرجت منه شهد وابتسم..

– "في مشاكل مع المدام ولا إيه.."

اقترب آدم من الطبيب أكثر وبتلهف أكثر..

– "لأ، إنت فهمت غلط.. مش قصدي كده.. قصدي صحتي كويسة؟!"

ابتعد أسامة قليلًا عن آدم برهبة طفيفة..

– "في إيه يا أستاذ آدم.. كل الي عندك شوية هبوط من قلة الأكل.. وجابلك زي غيبوبة بسيطة والمدام لحقتك"

بدون أن يشعر انطلقت منه..

– "طب والمتلازمة؟!"

لم يفهم الطبيب ما يرمي إليه آدم..

- "مش فاهم تقصد إيه..؟!"

تحوَّل آدم بنظره إلى الأرض قليلًا غير مصدق احتمالية أن يكون قد شُفيَ ثم نظر للطبيب بسرعة مرة أخرى..

- "الإيدز.. أنا كان عندي الإيدز، عاوز أفحص دمي."

لم يرد الطبيب وطالب سريعًا إحدى الممرضات بتحضير غرفة معزولة لآدم، مطالبًا إياها بعمل حظيرة لأخذ بعض العينات الدموية منه، وإرسالها للفحص.. لكنه لم يبالِ كثيرًا بالأمر واهتمَّ بأحد الأطباء الشباب الذي دخل ونَظَر لآدم بتجاهُلٍ وتوجَّه لأسامة بالحديث..

- "مدام ريم مصابة بالوكيميا!.."

مرت بضع ساعات أخرى وآدم ملازمٌ فِراشه لا يُفارقه أبدًا كوضع أفكاره الحائرة المحتلة كل خلية بعقله، ولكنه قَرَّرَ التهرُّب منها بعض الوقت في رحلةٍ قصيرةٍ داخل المستشفى لتفقدها مُتجاهلاً ًشهد خارج الغرفة التي سرعان من تطفلت عليه كالعادة..

- "سلامتك.."

ابتسم لها بنظرة بسعادة تلحُّ عليه بتقبيلها بشهوة كاد أن ينساها في سنواته الفائتة، ولكنه ما زال يتملك ما بداخله من بقايا شك أنه ما

زال يحمل ذلك المرض اللعين، فمنع نفسه عنها، وتلاشت ابتسامتُه وبنفس طريقته السَّمجة معها..

– "شكرًا.. يا عالم لو مكنتيش.."

اقتربتْ منه بسرعةٍ ووضعت يدها على فمه لتمنعه من استكمال كلماته وتعمدت حَكَّ صدرَها في جسدِه، وزفيرُها الساخن يلفح وجهَه بقوة شديدةٍ يتأمل حركه شفتيها الحمراوين وهي تعتصرهما بهدف إثارته لوهلة، وارتفعت يده ليداعب خصلات شعرِها، وأمسكت هي بالأخرى ووضعتها فوق دقات قلبها المُتسارعة، وأغمض كلٌّ منهما عينيه لثوانٍ قبل أن يقطع أذنه..

– "متخافيش.. اكيد هنلاقي علاج يا حبيبتي.."

حاولَ إبعاد تداخل الأصوات، وشيءٌ ما أجبره التركيز على ذلك الصوت القادم من الغرفة المجاورة..

– "ديه لوكيميا.."

فتح عينيه وتوقفت التَّلامُسات بينه وبين شهد، وتركها مسرعًا إلى غرفة ريم وجمال، ووقف أمام بابها يراهما من حيث لا يريانه..

– "متخفيش.."

أمسكت يده بذُعر وتلألأت الدموع في عينيها، وهي تهمس بنبرات متقطعة..

- "م.. مشـ.. عاو.. زة.. أمووت"

ضمها إلى صدره حابسًا دموعه بقلبه، وشعر آدم بيد شهد على كتفيه وهي تقول..

- "شكلها تعبانة.."

نظر لها صامتًا وهو يتمنى أن يكون لها نفس حظِّه بأن ترى ذلك العجوز مجددًا..

- "تفتكر هي مريضة بإيه؟"

رغم علمه بالإجابة وإيمانه الذي تحوَّل من الشَّكِّ إلى اليقين في علاجه وشفائه من الإيدز، لم يجب عليها بسوى..

- "مش عارف"

***

بعدما تأكَّدَ آدم أن دماءه وكبده قد خلوا تمامًا من الفيروس المُسبب لمرض الإيدز رَحَلَ نحو المكان نفسِه الذي تقابَلَ فيه مع

العجوز، فلم يجده فاجتهدَ كثيرًا حتى وصل للبيت نفسهِ، فكان خاليًا تمامًا من الحياة.

اختفى العجوز صُهيب مدة ثلاثة أشهر..

حتى عاد من جديد!..

(٦)

بعد مرور ثلاث ليالٍ من محاولة سارة لحرق نور الدين وعمر في القرية، كانت سعدية التي تعيش في البيت المقابل لسارة، حيث كان بيتها أول البيوت المُحترقة بعدما حاوَلَ أحد الشباب تصوير سارة عارية، فانتقمَ منه همَّان تنفيذًا لرغبة سيدتِه، وأحرق البيت عن بكرة أبيه، كانت سعدية تتحرَّك وسط أطلال بيتها وأثاثها المحترق، فكان اللون الأسود الغالب على المكان والرماد منتشرًا في كلِّ ركنٍ من أركان الغرف. ولكن لاحظت قُرب الشرفة هاتف ابنها محمود ساقطًا أرضًا، كان سليمًا بشكل جزئي، فقد كان مكسورًا كسرًا بسيطًا في شاشته، حاولت تشغيلَه، فأضاء معها، فعلمت أنه توقَّف عن العمل إثر سقوطه من ابنها قبل رحيله الأليم.. ارتعشت إضاءته لحظات، فعلمت أن بطاريته توشك على الانتهاء..

دمعت عيناها حينما فتحت سجل الصور وأخذت تنتقل بينها وترمُقُ ابنها في الصور المتعددة التي تجمعه مع زملاء دراسته وأخرى لأصدقائه من القرية، وصور أخرى كانت تجمعه مع فتاة أحلامه، كانت تنتقل بعينين باكيتين عما جرى للقرية في أيامها الأخيرة من

أمور لم تخطر على بال أحد قط.. حتى وصلت لفيديو مصور فتحته على أمل أن ترى ابنها في صورة متحركة أخيرة.. ولكنها صُعقت حينما رأت سارة تتعرى، فلم يكلف الأم مجهودًا أن تستنتج أن ابنها كان يُصوِّرُها ليلًا من الشُّرفة فاقشعرَّت من الخِزي لتصرفاته الصبيانية، وقرَّرت مسح ذلك التسجيل إلى الأبد، فلا تريد خطأ مراهق يشوب سمعته بعد وفاتِه، ولكنها صرخت حينما رأت نظرة سارة المرعبة نحو الهاتف وإشارتها لأحد الكيانات الغريبة واهتزاز الهاتف في يدي ابنها وصرخته ذُعرًا.. سقط الهاتف أرضًا ولكن الصوت كان ما زال يسجلُ، فسمعت محمود يعتذرُ بقوة.. قبل أن تسمعَ صوتَ تَهشُّم عِظام عُنقِه..

فقالت في نفسها متوعدة الساحرة..

–"سارة!"

أخذت سعدية تُهرول نحو الخارج، حيث كان سيد يقف مع بعض الرجال يتناقشون في راتبهم اليومي لأجل إعمار البيت من جديد، كان سيد يعلم أنه يتحمَّل ما لا يمكن لغيره تحمُّله، موت ابنه الصادم لم يكن بالأمر الهيِّن.. فطالما كان يعتمد عليه ويؤهله ليحلَّ محلَّه في رعاية الأرض، ليس هذا وحسب بل أيضًا صار مطلوبًا منه الآن إعمار ما أفسدته اللَّعناتُ والشياطين، كما انتشر في القرية

أسلوبُ إطلاق اللَّعناتِ والسُّباب على بلال ليل نهار عما سبَّبه للقرية من تجمُّعٍ شيطاني.

حينما وصلت سعدية إلى زوجها لم تبالِ بوقوف الرجال، وصرخت وهي تمنح زوجها الهاتف..

-"سارة.. سارة مخاوية!"

سحب سيد الهاتف ونَظَرَ نحو شاشته وباقي الرجال أجبرهم فضولهم على التطلُّع للتسجيل المصور، فشاهدوا الواقعة بالكامل..

-"بنت الكلب.."

***

تناسخت، صورة طبق الأصل من سارة، وجلست أمامها كان كلاهما يريد ملابس قصيرة زرقاء عدا أن النسخة التي تجسد فيها جسام كانت تملك شعرًا أشقر مُخالفًا للون شعر سارة الأسود..

-"شعري أسود مش أصفر.."

ابتسم جسام للحظات وصمت متأملًا قسمات وجهها المتجعدة رغم سنها الصغير بعدها قال..

-"فشلتي في حرقهم.. وخلتيهم يهربوا"

أومأت في اصطناع الحزن بعدها نظرت لصورتها المنسوخة الأكثر شبابًا منها بعين ساخطة على شبابها الذي تلاشى منها خلسة وردت بعنف..

–"أنا كنت خطتك البديلة، يعني إنت فشلت قبلي.. وكمان فشلت تاني أما محاولتش إبعاد الساحر عن المشهد، ابن بوران الفارسي.. إزاي عرف كل ده؟! إزاي سبته يتدخل؟!"

أزالت عن كتفها ما يغطيه من ملابس لتبرز آثار جُرحها وأردفت..

–"مكنش المفروض ده يحصل.. إنت السبب، غبي!"

أومأ جسام في تفهُّمٍ عاجزًا عن الردِّ مُتعجبًا من نظراتها الجامدة القاسية..

–"إنتِ صح.."

تحركت سارة نحو الشرفة تنظر للقرية المحترقة من حولها بينما جلس جسام على فِراشها بعدها قال..

–"محتاجك في مهمة أخيرة"

حركت رأسها نافية الأمر سريعًا..

–"مفيش مهام قبل ما تنفذ الجزء بتاعك.. اتفقنا، حاجة أدام حاجة"

ردَّ جسام متوقعًا تلك الكلمات منها..

-"الصبح هتلاقيهم مربوطين هنا.. وبالليل هاجي أخد جثثهم ونتفق على المهمة الجديدة".

أومأت سارة دون ردٍّ منتظرةً ما كانت تحلم به منذ أعوام، مُقابلةً المغتصبين بعدما نجحت في قتل أحدهم وهربت قبل أن تظفر بالاثنين الباقيين، تشعر بانتشاء وسعادة وهي تعلم أنه بعد سويعات ستشرب من دمائهم حرفيًّا كما وَعَدَها جسام..

(٧)

بعد عدة شهور..

في المرة الثانية التي تقابَلَ فيها آدم مع صُهيب اتخذت المقابلة نمطًا مختلفًا أكثر عن سابقتِها، تعانقت شهد معه وتبادلا القُبلات واللَّمسات، لعق نهديها في نَهِمٍ فصارت تزأر بشغف. سنوات مرت وآدم يحيا حياة الرُّهبان لا لقاءات حميمية، لا مشاعر متبادلة، كان كثير الاشتياق لشهد رغم تقدُّم عُمرِها عنه إلا أنه كان يشعر معها بدفء لم يجده مع الفتيات صغيرات السِّن. بعدما انتفضا كلاهما وسقط كل منهما على جانبي الفراش مُتعرقي الأجساد، مُضطربي الأنفاس..

-"ليه كنت بتهرب مني؟!.. كنت قربت أنساك، كان لازم أنقذك يعني عشان تفتكرني!.. بعدت كتير عني من غير سبب، رغم إن أنا عمري ما طلبت منك حاجة."

اقترب منها آدم وطبع قبلة على جبهتها، ثم وضع رأسه على صدرها وشرع في بكاء هيستيري، فضمته إليها أكثر، ودمعت عيناها لدموعه التي لا تفهم سببها، شعرت أنه كان يحمل الكثير داخله،

ويعجز عن الشرح أو التوضيح، فعزمت على عدم طلب المزيد من الفهم عن اختفائه، وأن تكتفي بالاحتفال بعودتِهِ ولكنها لم تمنع نفسها من التفكير في رحيله المفاجئ إن تكرر في المستقبل القريب كما سبق أن فعل.

سَكَنَ كلاهما على نفس الوضعية، وغاصا في نومٍ عميق، كان أكثر راحة لشهد منذ وقتٍ طويل بينما آدم كان كذلك في السويعات الأولى من منامه قبل أن يرى ذلك الوجه المُجعَّد الذي يعرفه من جديد يضحك له، فتبرُز له صفٌّ أسنانه الممتلئة بالفجوات المعتمة..

–"حمد الله على السلامة.."

سأله آدم..

–"اختفيت فين؟! سألت عليك في منطقتك قالولي إن محدش عايش في البيت.. أنا حتى معرفش اسمك"

أومأ العجوز وأجاب..

–"صُهيب.. اسمي صُهيب"

سأله آدم من جديد لإشباع فضوله..

–"منين كنت تعرف مرضي؟!"

أجابه صُهيب في تعجُّبٍ قليل..

-"إنت قولتلي.."

لم يفهم آدم كلامه جيدًا..

-"يعني إيه قولتلك؟! أنا قبل اليوم إياه عمري ما شوفتك."

ضحك بهدوء..

-"حصل صدقني! إنت بس مش فاكر.."

رد آدم..

-"مش بس مش فاكر.. أنا كمان مش فاهم."

أخرج صُهيب من جيب قفطانه مخطوطة صغيرة ومنحه إياها..

-"قابلني في العنوان ده، نُص الليل.."

أخذ آدم الورقة، وأردف صُهيب..

-"روح دلوقتي.."

استيقظ آدم بهدوء في فِراشه، فوجَدَ شهد قد رحلت عن شقته، فنظر للساعة وجدها الواحدة ظهرًا، فعلم أن نومه تخطَّى العشر ساعات، كان في بداية الأمر لا يتذكَّر الحُلم ورؤيته للعجوز صُهيب، ولكنه فور نُهوضِه من فِراشه وَجَدَ المخطوطة نفسَها بجانبه، فخطفها وتذكَّر مُقتطفات من المنام، فتح الورقة وقرأ ما فيها..

مقابر المنارة – مدفن أحمد رمزي

كان يستحيل على آدم إيجاد مدفن بعينه في ظُلمة منتصف الليل، حينما ذهب ونجح في التسلُّلِ لداخل المقابر في ظُلمات الليل حيثُ السكون والهدوء المُرعِب، أخذ يتحرك بين المدافن باحثًا الاسم المُراد وهو يعلم أن بحثه ذلك من الحُمق كأنه يبحث عن إبرة في كوم من القش، فاستمرَّ الحال قرابة الثلاث ساعات بلا جدوى حتى وَجَدَ دخانًا يخرج من بعيدٍ تحرَّك ناحيتَه بخُطوات خفيفةٍ، فكان العجوز بجانب أحد المقابر.

اقترب منه آدم ورَمَقَ اسم المقبرة الواقف أمامها صُهيب فكانت هي المَنشودة..

–"اتأخرت!"

أجابه آدم..

–"إزاي كنت هلاقي مقبرة، وبعدين اشمعنى هنا؟!"

ألقى صُهيب لفافة تبغه وأمسك بعصاه وتوكَّأ عليها ليجلس مُسندًا ظهره لصخرة المقبرة، مجيبًا على سؤال آدم..

–"أهله قالوا إن الدفنة تمت تبع الحكومة، عشان محدش يحضرها، لأن مكنش فيه جثة أصلًا.. كل الجثث إلى رجعت من الموقع كانت ناقصة إيد أو رجل.. أما رمزي الوحيد الي مكنش موجود!"

عقل آدم يتساءل: مَنْ رمزي؟! أيُّ جثة؟! عن أي شيء يتحدث ذلك المُخرِّفُ؟!

ينتقد آدم عقله في اللحظة نفسها: مُخرِّف حامل علاجًا لمرض الإيدز!

-"أنا مش فاهم حاجة.."

-"هفهمك.."

جلس آدم بجانب العجوز محاولًا إيجاد معلومة واحدة تفيدُه لفهم ما يحدث من حوله، أخرج العجوز سيجارةً أخرى وأشعلها عارضًا بأخرى على آدم فرفَضَ بمللٍ..

-"لازم تعرف إنك أنت السبب في كل حاجة يا آدم، أول مرة شوفتك فيها كانت.. يجي من ستين سنة مثلًا، يمكن أكتر شوية أو أقل شوية معدتش فاكر.."

أحس آدم أن العجوز يستخفُّ بعقله، فكاد أن يلكمه على وجه ليجبره على قول ما لديه، ولكنه تعلَّمَ ألا يستبق الأحداث، فلم ينسَ أن ذلك العجوز هو من منحه علاجًا لفيروس كاد أن يُنهيَ حياتَه..

-"عارف إن الكلام غريب عليك، ومش مفهوم.."

أومأ آدم..

–"وأما شوفتنى إيه الي حصل، إزاي بدأت كل حاجة؟! وقصدك إيه بكل حاجة؟"

**

عام ١٩٤٠

وجهت السيدة كلامها لصُهيب في حُزنٍ بالغٍ..

–"نفسي أعرف مين الي بيسرقني يا شيخنا.. الشيخ واصف قالي إن الحل عندك، وإنك يامه قدمت المساعدة للغلابة الي زيي، أنا تحت أمرك! وتحت أمر الأسياد في كل حاجة يطلبوها.. بس أعرف مين! أعرف مين حتى لو مش هعرف أرجعهم، الشك وحش أوي يا شيخنا."

ألقى صُهيب بالبخور في المبخرة التي أمامه، فتصاعد دخانها ليخيم على المكان وسألها..

–"وإيه المسروق منك؟!"

أجابته بلهفة..

–"السيغة كلها.. دهب.... فلوسي كمان كلها، شكيت في كل الناس حتى جوزي، شكيت في عيالي.. بس، أنا عارفة إن عمرهم ما يعملوا كده.. بس هيكون مين غيرهم!، لازم تقولي يا شيخنا."

أدرك صُهيب الحالة التي تعيشها السيدة فأشفق على حالها، وعزم على منحها الإجابة في أسرع وقت ممكن..

-"متخافيش كل حاجة هتتحل والمسروق هيرجع، اسم أمك إيه بالكامل؟"

**

قطع آدم حديث صُهيب ..

-"وإيه علاقة ده بكلامنا؟!.."

أجابه صُهيب..

-"اصبر.. كل حاجة مرتبطة ببعضها، مفيش حاجة صدفة، كل حاجة حصلت وبتحصل حلقة في سلسلة كبيرة، لو عاوز تفهم إديني فرصة أفهمك كل حاجة."

***

بعدما رحلت السيدة المتجاوز عمرها نصف العقد السابع ، جلس مكانه وشرع في تلاوة بعض العزائم الخاصة بتحضير خادم الجان الخاص به، يومها كان الوضع مختلفًا كثيرًا مع صُهيب حتى أبى الخادم الحضور، أخذ صُهيب يُعيدُ العزيمة مرةً تلو مرة.. لا انتصاب في الشمع المحيط به، لا علامة على حضور أي كيانٍ حوله، استمرَّ

الحال على نفس الوضع حتى اهتزت الأرض بقوة من تحته، فارتعش معها جسدُه وصرخ مَذعورًا..

أحسَّ أنه أخطأ في إلقاء العزيمة، وأنهم جاؤوا للانتقام منه، ولكن شكه لم يكن على حق..

إن ما حدث كان مختلفًا كثيرًا..

***

صمت صُهيب ليرى إن كان آدم متفاعلًا مع الحديث الذي حرص بشدة على أن يسرده بشكل مُثيرٍ ليجذب انتباه الفتى لسماعه وتصدقيه فيما بعد..

آدم..

–"كمِّل، وبعدين.."

بلع صُهيب لُعابه وأومأ كأنه يُخاطِبُ كيانًا ما وقال..

–"شوفتك!"

***

في الفراغ تشكلت فجوة أمام صُهيب شاهد من خلالها آدم مُلوِّحًا بيده، كان لا يفهم صُهيب مَنْ ذلك الشاب ومِن أين جاء؟! وما الذي يحدث؟!..

-"إنت مين؟!"

-"دور عليا ولاقيني.. آدم.. اسمي آدم شاهين، إسكندرية.. وابقى إديني ديه."

ألقى آدم له بزجاجة ذات سائل أزرق، متطابقة مع نفس الزجاجة التي سبق ومنحها إيَّاه العجوز في اللقاء الذي جمع بينهما قبل أيامٍ من تلك الواقعة..

***

آدم..

-"يعني أنا كان معايا علاجي؟! وأنا الي جبتهولك؟!.."

صُهيب..

-"استنى، صدقني ديه مش أغرب حاجة هحكيها النهاردة."

***

بعد عامين من الواقعة تكرَّر السيناريو نفسُه، وظهرت الفجوة من جديدٍ، وبَرَزَ آدم خلالها أمام صُهيب فتذكَّره في الحال، وألقى صُهيب سؤاله سريعًا هذه المرة قبل أن يرحل ذلك الشاب غريب الأطوار..

-"إنت بتيجي منين؟!"

تجاهَلَ آدم الإجابة وردَّ السؤال بآخر..

-"عارف إنك شغوف بالحياة الأبدية، نفسك تستعيد شبابك.."

بلهفةٍ ردَّ صُهيب..

-"نفسى.."

ردَّ آدم..

-"حاول تساعد أحمد رمزي.. لو أنا حاسب صح هتقابله بعد أربعين سنة تقريبًا."

بسخرية..

-"وتفتكر يا ابني أنا هعيش أربعين سنة كمان.."

أجابه آدم بثقةٍ..

-" هتعيش متخفش.."

***

قَطَعَ آدم حديث صُهيب عن ذكريات غريبة سبق أن عاشها مع آدم الذي لا يتذكَّر أي شيء يقوله ذلك العجوزُ..

-"مين أحمد رمزي؟"

ردَّ صُهيب..

-"ده السؤال نفسه الي سألته لنفسي وقتها.. وإيه علاقة مساعدتي للشخص ده بالحياة الأبدية، وإيه الضمان إني أعيش أربعين سنة كمان؟ وقتها كنت قربت من الستين".

-"وبعدين؟!"

-"مقدرتش استنى الأربعين سنة.. وأعيَّش نفسى على أمل كداب في الخلود، فقررت إن أنا الي أتحرك نحو الهدف، طالما الخلود مرتبط بأحمد رمزي ده.. ليه أستناه يجيلي أما ممكن أجبره أنا على كده.. أما طلبت من الخادم يعرف مكان الشخص المقصود كان المقابل غالي جدًّا المرة ديه."

-"إيه كان مقابلهم؟.."

-"قربان بشري.. جثة.. فقتلت بنت جت عشان تتجوز، وللأسف مكنتش المرة الأخيرة الي أضطر أقتل فيها."

***

بدأ صُهيب عهدًا جديدًا مع الجان بعدما سمح لنفسه بتقديم القرابين البشرية، كانوا يعلمون في تلك الأثناء خطورة بقائه في المكان والقرية، فكان إخفاؤه وتهريبُه من المكان أمرًا لا بد منه خصوصًا بعد منحهم جثة الفتاة العذراء. حينما تقابَلَ صُهيب مع إحدى الشخصيات ذات السلطة في عالم الجان كان يُدْعَى الملك

صارفش سأله عن سبب بحثه عن تلك الشخصية التي تُدعى أحمد رمزي خاصة بعدما وجد الملك أنه مجرد طفل لا يتعدَّى العشر سنوات..

–"معرفش، بس متأكد إن بمُساعدتي ليه هكون خالد."

ظل الملك صارفش صامت ناظرًا لصُهيب متأملًا تجاعيد وجهه وحلمه نحو البقاء أبد الدهر، فشعر بالغرور في نفسه لامتداد أعمارهم عن أبناء آدم، فاعتدل في جلسته وسأله..

–"لم ينجح أيُّ إنسانٍ في نيل الخلود سوى اثنين، وكان مصيرهما شديد الأسى، الأول الساحر موسى السامري ونهايته أسير بجزيرة نائية، وأما الآخر تلميذه مراش بن بوران الفارسي، وانتهى به المطاف أسيرًا داخل قبر مراقب بأشد حراس عالمنا.. وسر الخلود مدوَّن في مخطوطات السامري المفقودة.. ولكن ما علاقة كل هذا بذاك الطفل؟!"

كان صُهيب لا يعلم أي شيء عن علاقة ذاك الطفل بتلك الأقاويل التي تحدَّثَ بها الملك، حتى لم يكن يعلم أن هناك سحرة قبله امتلكوا الهاجس نفسه نحو الخلود بل نجح منه معلم وتلميذه في نَيْلِه، فتحمَّس للفكرة أكثر وشعر أن الأمر ليس مُستحيلًا..

–"معرفش.."

سأله صارفش مجددًا محاولًا جمع معلومات أكثر..

-"مَنْ أخبرك أن هناك رابطًا بين أحمد رمزي والخلود؟!"

قال صُهيب..

-"وأنا بحاول استدعاء خادمكم الكريم، ظهر ليا شاب.. مننا وبلغني أدور عليه، وأديله سائل.. وفي زيارته التانية بلغني إني لازم ألاقي الطفل ده وأساعده، وبلغني إن سر الخلود مرتبط بالمساعدة ديه!"

كان الحديث غريبًا وغير مفهوم، فكيف لإنسان يقطع اتصال بين بشري وجانٍّ ويتدخل لتغيير بعد الأحداث المستقبلية..

-"ما اسم هذا الفتى؟.."

-"آدم.. آدم شاهين".

-"ارحل الآن، اختفِ نهائيًّا عن قريتك، وغدًا سنخبرك بمكان الطفل المُراد."

***

آدم..

-"وهربت؟.."

صُهيب..

-"هربت.."

آدم..

-"وبعدها بلغوك بمكان الطفل؟!"

صُهيب..

-"تاني يوم الخادم قالي على المكان، فضلت أتتبع الطفل ده ليل نهار.. طفل طبيعي عادي مش قادر أفهم إيه الي ممكن يمتلكه يوصلني للخلود.. تقريبًا تمن سنين وأنا مش قادر ألاقي سبب إن الطفل ده أو الشاب الصغير ده ممكن يجيلي في يوم من الأيام.. لحد يوم مهم جدًّا"

***

كان صُهيب ينفِّذُ طقسَه اليومي في مُراقبة الشاب أحمد رمزي في كل خطواته حتى يكون على مَقربةٍ منه لزيادة فرصة لقائهم وطلب الشاب المساعدة منه، سنوات من عدم اليأس، سنوات بلا أي حدث وحيدٍ في حياة الطفل ينبئ بكونه مختلفًا أو مُتميزًا..

يومها اقتحم صُهيب بيت الفتى خلسة، حاول البحث داخله عن شيءٍ يُخبرُه فيها عن طريق الخلود! كان يعلم أنه كلما استمرَّ في ذلك الأمر ازدادت نظرته لنفسِه بكونه صار أحمق عجوزًا متعلقًا بأحلام لن تحقق أبدًا.. يُسيطرُ عليه اليأس لحظاتٍ ينبذها بقصة

السامري وابن بوران الفارسي فيقنع نفسه بكونه ليس أقل منهم شأنًا، ولكنه لم يدرك أبدًا بكونه قطعة شطرنج في أيديهم طوال الوقت..

دخل عليه رمزي وكان رجلًا خمسيني العُمر، صُعِقَ من منظره، فكان ردة فعل صُهيب غير منطقية وغريبة.. حينما سَحَبَ خِنجره ناحرًا رقبته وهبَّ مُبتعدًا عن المكان بالكامل..

***

صرخ آدم مصعوقًا من كم الرِّقاب التي أطاح بها ذلك العجوز..

–"دبحته؟!"

أومأ بعدم اهتمام..

–"الغريب أن جد أحمد رمزي كمان اتعرض للسطو في بيته، واما رفض دبحوه هو كمان والصدفة إن رمزي وقتها كان تمنتاشر سنة، نفس عمر أحمد لما أنا قتلت ابوه!"

لم يفهم آدم إلامَ يُشير صُهيب، فحاول الاستفسار..

–"وإيه علاقة كل ده ببعضه؟ وإيه علاقة كل ده بيا؟"

اجابه صُهيب..

-"العلاقة أما قابلت الملك صارفش وبلغني عشان أجيب أحمد عندي، لازم أقنعه إن موت جده وموت أبوه مرتبطين بلعنة.. وإن حياته في خطر!"

تساءل آدم..

-"وليه يساعدك في حاجة زي ديه؟!"

فردَّ صُهيب..

-"في البداية مكنتش أعرف، كان مهتم جدًّا بتنفيذ كلامك.. كان عارف إنك عاوز تحيي السامري وابن بوران، أنا الوحيد الي كان بيتحرك على عماه وسطكم."

فقال آدم مستنكرًا الحديث..

-"سامري مين؟ وابن بوران إيه؟.."

استمرَّ الحديث ثلاث ساعات أخرى، تارة كان آدم مُندهشًا، وتارة مُتأمِّلًا، لحظة يصدق وأخرى يستنكر، صُهيب يكمل حكاية بلال، بعدها جيهان وعلاقتها بجسام، يمرُّ الوقت ويأتي ذِكْرُ نور الدين وعمر، آدم ينصت لكل هذا دون تعقيب ملحوظ، فقد كان الصمت هو أبلغ ردٍّ حتى يأخذ الفرصة الكافية للتأكُّد من صحة المعلومات، خاصة أن صُهيب ذكر الكثير من الأسماء التي ليس من الصعب التحرك خلفها..

ولكن في لحظة خطر سؤال لم يُقاوِم آدم رغبته الجامحة في قوله..

-"كلامك متسلسل بصورة كويسة! صحيح أحداثك غريبة، ولكن تسلسلها طبيعي، بس مش فاهم بردو ليه الملك صارفش عاوز يساعد في إحياء السامري أو ابن بوران، إيه الفايدة؟!"

تنهد صُهيب بعدها قال..

-"زمان قبيلة الجان الأحمر كان ليها مكان مميز جدًّا، امتلكت القوة والنفوذ كانوا من أقوى القبائل أو المملكات في العالم.. عالمهم أقصد.. كانوا ظلمة، غزو مملكات كتيرة، جيوشهم كانت قوية وفي كل مكان.. بس مع سقوط مصر و هزيمتها في حربها ضد بلاد فارس، وكمان ضياع المخطوطات الخاصة بموسى السامري وأسر ابن بوران.. تراجعت المملكة وسقطت بشكل كبير أوي، وبدأ عصر الحروب.. دامت الفوضى قرون طويلة، حتى بدأ عصر جديد في عالم الجان، وبدأ القانون يبقى حاسم أكثر في التعاملات مع البشر.. حتى السحر الأسود بقى في حدود أوي وله شروط كبيرة.. مش زي الأول.. لأنهم اتهموا أن البشر هم السبب الرئيسي في اقتتال الجان وبعضهم، أما ظهرت إنت زمان و بدأت تتحرك في طريق تحرير ابن بوارن الفارسي من مدفنه، الملك صارفش تابع الموضوع عن قُرب، فعرف إن الجان الأحمر هو المستفيد الوحيد من

حركة زي ديه، فرجوع الساحر موسى السامري والساحر ابن بوران الفارسي وعقد معاهدة بسيطة معاهم ممكن يضمنلهم مكانة أفضل من مكانتهم.. الملك صارفش كان عارف إن الجان الأحمر لسه عندهم نفس التمرد وحلمهم في الرجوع للقيادة قائم، كان عاوز يوقعهم في الفخ ده، يمشوا في مشوار طويل ويحرروا فعلًا موسى السامري وابن بوران الفارسي، وبعدها ينجح هو بالاتفاق مع كذا قبيلة تانية من عالم الجان لقتلهم وبكدا يبقى كسر شوكة الجان الأحمر للأبد.. ده غير كم القيود والعواقب الي هتقع عليهم بعد ما يتكشف اتصالهم بعالم البشر تاني ومحاولة إيحاء السحرة."

سأله آدم..

-"بس قبيلة الجان الأحمر هي الي أسرت ابن بوران، إزاي ممكن يتحالفوا معاه؟!"

إجابة صُهيب..

-"عشان النقطة ديه، قرروا يخلصوا من ابن بوران الفارسي والتعاون يكون مع جسام مش ابن بوران.. بالمناسبة جسام يبقى قرين ابن بوران الفارسي."

آدم..

-"بس حسب كلامك إن جسام كمان اتعرض للأسر.."

صُهيب..

-"جسام مصلحته بالتصالح معاهم عشان يوصل لحريته الكاملة.. الموضوع بينهم يعتبر شغل.. مصلحة أدام مصلحة، حتى جسام عارف قرار الهجوم عليهم في القصر زمان مكنش غير مقابل الزئبق والقرابين، عارف إن القبيلة ديه تبيع نفسها مقابل أي حاجة"

حينما انتهى آدم من مقابلته مع صُهيب كان الشمس قد بدأت في الشروق، فيسرت كثيرًا من عملية خروجه من المقابر شارد الذهن، لا يجيد التفكير في أفضل التصرفات الآن، حكايات غريبة قصَّها عليه ذلك العجوزُ، حكايات كان آدم بطلها، وقصص عن لعنات كان آدم جزءًا من بدايتها! ماضي غريب لا يتذكر آدم عنه شيئًا، لا تفسير سوى سفره عبر الزمن للماضي لمقابلة ذلك العجوز!

ولكنه ما زال لا يفهم ما الذي سيجبره على فعل تصرف مثل هذا؟!

كان ذلك السؤال يشغله أكثر عن كيفية قيامة بتلك الرحلة التي لم يسمع عنها سوى في الحكايات و الأفلام!..

ابن بوران الفارسي

جسام

لميس عاهرة المعبد..

عاد لذهنه في لحظة سماعه لصوت احتكاك إطارات سيارة كادت أن تصدمه، نظر لسائقها ببرود والأخير تتعالى صيحاته بالسباب، ابتعد عن المكان غير مبالٍ بالأمر واستمرَّ تفكيره في تلك الحكايات الغريبة..

سأل نفسه عن تلك الرحلة العائدة للماضي، فهو يعلم بل متأكدٌ أنه لم يقم بها بعد! إذن بإمكانه تجاهل الأمر بأكمله، وعدم الانخراط فيه، فهو لا يعلم ما الذي سيجبره على ذلك؟ بالتأكيد هناك سبب قوي سيدفعُه لنصيحة العجوز بضرورة مساعدة أحمد رمزي، حيث البداية لتحرير ابن بوران وشيطانه جسام تمهيدًا لكسر قيود موسى السامري!.

ولكنه تذكر فجأة أن ذلك العجوز هو من منحه علاج الإيدز، فلولا تلك الزيارات القديمة ما كان حصل على علاجه أبدًا وكان تحت التراب الآن..

ولكنه عاد بالتفكير من جديد: لماذا لم ينصح العجوز بمنحه العلاج فقط بدون الانخراط في أمر اللعنات وتحرير مخلوقات يعلم الله وحده شرها على الجميع لو امتلكت الحرية من جديد؟

في بيته مَكَثَ سُويعات محاولًا جمع شتات الأمر بأكمله داخل رأسه، فالأمر متشعب كثيرًا ومتشابك مع شخصيات كثر وأزمنة

مختلفة، فجلب ورقة وبدأ في كتابة الأمر في نقاط محددة محاولًا فهم المزيد..

أ: نشأ خلاف حاد بين موسى السامري وموسى بن عمران بسبب عبادة قوم موسى الصنم الذهبي الذي سحره السامري.

ب: قام بعد ذلك رجال موسى بن عمران بتتبُّع موسى السامري، وقاموا بضربه حتى سقط مغشيًّا عليه، وبعدها استعانوا ببعض السحرة لأسره في جزيرةٍ مهجورة.

ج: هرب مراش بن بوران الفارسي ومعه مخطوطات السامري وبدأ في التعلُّم منها كل شيء دوَّنها معلمه.

د: تحرر مراش بن بوران الفارسي من قرينه جسام.

هـ: قامت لميس بخيانة ابن بوران الفارسي وجسام وأسر كليهما داخل أحد القبور المسحورة.

و: قام آدم بزيارة للعجوز صُهيب لمساعدة رمزي!

ز: تعاون العجوز مع إحدى مملكات الجان في مساعدة رمزي وتوجيهه لتحرير ابن بوران من جديد

ح: قام جسام بتجنيد رموز بشرية، بهدف إعادة موسى السامري من أسره.

بعدما أتم كتابة تلك النقاط أعاد قراءتها مُجددًا بتركيز أكثر، فلاحظ اختفاء المخطوطات من حكاية العجوز بعد أسر ابن بوران الفارسي، ففكر في كيفية عدم مسائلة لميس أو عاهرة المعبد في حيازة تلك المخطوطات، فلو تمتلك تلك المخطوطات بالتأكيد ستحاول أن تعلمَ ما بداخلها وقد تحصلُ على الخلود!

إذن هناك احتمال لا بأس به أن عاهرة المعبد ما زالت على قيد الحياة، هي الوحيدة التي تمكَّنت في الماضي من إسقاط ابن بوران وجسام.

أخرج آدم من جيبه العنوان المدوَّن فيه عنوان جمال وأسرع لمراقبته، وكان لأول مرة يقرر مخالفة أوامر صُهيب، فكان عازمًا على نصح ذلك الطبيب بالابتعاد عن جسام. فعلم أنه الطبيب نفسه الذي سبق أن رآه في المستشفى مع زوجته التي تعاني مرضًا خبيثًا بدمائها، فاستنتج سريعًا لماذا جمال سيكون اختيارًا جيدًا للشيطان؟..

تمت المقابلة الأولى بينه وبين جمال بعد عدة أسابيع والتي تم ذكرها بالكامل في كتاب الثالوث، وانتهت بمنح آدم جمال مذكرات بلال ليرى فيها أثر التعامل مع جسام، إنه مهما يكن وعد جسام سينتهي الأمر بالسُّقوط في الوحل..

قام آدم بعد ذلك بزيارة للبحث عن عمر، فهو يعلم أنه ضابط وصديق شخصي لبلال، فكان إيجاده ليس بالأمر الصعب عليه، فالتقى به مرة داخل مكتبه والذي قابله عمر بمللٍ..

-"أفندم!"

داعب آدم شعره لحظات مفكِّرًا في الكلمات، بعدها قال..

-"كلامي ممكن يكون غريب أو جنون.."

ابتسم عمر بسخرية..

-"شوفت من الجنون كتير.. إتكلم."

اندفع آدم دون تفكير..

-"فيك حاجة كويسة تخلي قبيلة بني القمقام أو الملك صارفش يرفضوا تحالفك مع جسام، أكيد لمسوا فيك التمرد وعدم الخضوع زي بلال!"

صُدم عمر من حديث آدم ورَمقَه في شيء من الرهبة، فكان ذلك الغريب بالنسبة له يعلم معلومات عن جسام أكثر منه شخصيًّا..

-"إنت مين؟! وعرفت الكلام ده منين؟!"

أمسك آدم بكوب الماء الموضوع أمام عمر، وألقى به داخل جوفه بعدها أجابَهُ..

-"أنا.. الكلام صعب يتحكي ومليان تفاصيل كتيرة متداخلة ومتشابكة، وأنا لحد دلوقتي مش مستوعب أوي الموضوع بشكل كامل".

أومأ عمر في تفهُّمٍ بعدها قال..

-"حاول تحكي جايز معلوماتنا تكمل بعضها.."

مضى نصف ساعة من سرد آدم تفاصيل لقائه مع صُهيب، وتفاصيل أخرى عن علاجه من أحد الأمراض المُزمنة القاتلة وتفاصيل أخرى عن السفر عبر الأزمنة، كانت مستوى حديث آدم غير مقنع بالمرة لعمر فشعر بكذب كل كلامه وتراجُع تلك الأحاسيس لعدم تصديق آدم نفسه فيما يقول..

-"حسوا إننا قربنا من قتل الشيطان فبعتوك تحكي الحكايات ديه؟!"

-"تقتل مين؟!"

-"جسام.."

-"قولت إن كل واحد يقول الي عنده، أنا قولت لازم أحكي".

-"مهما كان مين الي بعتك، بلغه إننا هنقتل الشيطان النهاردة!"

-"مش غريبة إنك بتقولي الكلام ده؟! مش خايف أكون تبع جسام."

-"لو جسام يعرف، أو إنت تبعه مكنش شكل النقاش هيبقى خالص، إنت تبع تاني مصلحته إن جسام يعيش"

-"ما أنا ممكن أبلغه؟!"

-"لأ، مصلحتك إنه ميعرفش إنك موجود.."

-"ليه؟!"

-"في حد بيستغلك يا آدم، لو كلامك صحيح.. يبقى ليه متأكد أن صُهيب بيقول الحق! ليه إنت مش قطعة شطرنج في إيده بيحركك بيها، لا سافرت عبر الزمن ولا غيره."

-"طيب وهتقتل جسام إزاي؟!"

-"الراهبة مريم، هي الي إدتني طريقة.. أتمنى تنفع ونحرقه."

-"مين مريم؟!"

انتهت المقابلة بين عمر وآدم وفور خروج الأخير من المكتب اهتز هاتفه فأخرجه ونظر لشاشته، لم يظهر له رقمٌ، فلمَسَ شاشتَه لاستقبال المكالمة، وقرَّب الهاتف من أذنه فسمع صوتًا عَلِمَ سريعًا أنه صوت صُهيب..

-"عظيم.."

–"صُهيب؟!"

انقبض قلبه لأنه ظن أن العجوز يعلم ما يسعى إليه آدم من إفساد الخطة، وأنه يتحرك بشكل عكسي عم تم تحديده، فلم ينصح جمال بالذهاب، بل نصحه بالابتعاد، ولكن صهيب قطع قلق آدم للحظات..

–"كل المؤشرات بتقول إن جمال ناوي يروح القرية لاستعطاف جسام!"

الغبي!

صمت آدم لا يستوعب صدمة حديث العجوز..

–"إنت متأكد؟!"

–"أظن.."

–"طيب.."

–"ممتاز يا آدم.."

صمت كلاهما لحظات بعدها تساءل صُهيب في حيرة..

–"ليه روحت لعمر؟"

تردد آدم و بدأ في النظر حوله ظنًّا أن العجوز يراه الآن..

–"كنت.. كنت بحاول افهم هو ناوي على إيه؟!"

-"وبعدين؟"

-"كان عندك حق عمر مينفعش.."

ضحك صُهيب..

-"جمال مفيد أكتر.. جمال هو القادر على القتل مش عمر".

صدمه سوءُ الظَّنِّ بجمال في كل موقف بدا له جمال إنسانًا حسن السمعة والخلق لا يملك القدرة على إيذاء حشرة زاحفة..

-"قتل؟!"

-"آه.. نسيت أقولك عشان يتم اكتمال تجنيد الفيل، لازم يقتل روح بريئة."

-"قصدك جسام ممكن يعالج ريم، مقابل روح تانية؟!"

-"بالظبط روح مقابل روح!"

انتهت المكالمة وآدم يفكر في الخطوة الصحيحة الواجب اتخاذها في تلك اللحظة، التحرك ناحية تلك الراهبة لمحاولة فهم المزيد منها، أم العودة لجمال لمخاطبته مجددًا لضرورة التوقف عن تلك الرحلة التي لا يعلم مدى خطورتها، نوى للحظات الذهاب لجمال ولكنه تراجَعَ في اللحظة نفسها حينما تذكَّر أن صُهيب قد عيَّن مراقبًا له قد يكون غير بشري لمراقبة تلك تحركاته ونقلها. فكان

الذهاب للراهبة أقل خطرًا فيمكنه إبداء الأسباب وشرحها، أما رُجوعه لجمال في تلك اللحظة فلن يمثل سوى التردد والتمرد والغضب..

ولا حاجة في ذكر إن حديث عمر في شان احتمالية كذب صُهيب تشغل حيز لا بأس به في عقل آدم، وفي تلك الأثناء سيكون من منحه العلاج صُهيب نفسه، وسيكون هناك احتمال ضخم أنه كما منحه العلاج، يمكنه إعادة المرض له.

وقف آدم أمام البناية الخاصة بالداخلية مُتسائلًا نفسه عن الخطوة الواجب اتخاذها الآن..

فقرر الذهاب للراهبة مريم..

(٨)

حينما بدأت الشمس في الغروب، كان آدم يقف أمام دير الراهبات لمقابلة مريم، يأمل ألا يكون هناك مُتتبِّعٌ له في ذلك المكان حتى لا يضطر لاختلاق الأعذار عن وجوده، لا يعلم بالضبط ما المفترض قوله، في نهاية حديثه مع عمر أخبره عن ضيق صبرها ولهجتها العربية الفصحى التي وصفها عمر بالمملَّة! طرق آدم الباب ففتحت له إحدى الراهبات..

-"كنت.. كنت عاوز أقابل السيدة مريم."

سألته في رِيبةٍ وغضب، فهي لم تنسَ بعد زيارة عمر المتوتر دائمًا بالنسبة لها وارتعاش حديثه وعدم ثقته بنفسه وتهديده في غير محله بكونه ضابطًا، وإجبارها على مقابلة مريم..

-"إنت مين؟!"

أجابها..

-"بلغيها آدم.. آدم من طرف عمر.. المفروض إنه كان هنا من قريب."

تفهَّمت الأمر وصدق ظنُّها بكون هؤلاء المجانين لن يكفُّوا عن تلك الزيارات، وفكرت في ضرورة تغيير مكان الدير في أقرب فترة ممكنة، لا تعلم مَنْ مَنَحَ كل هؤلاءِ العنوان وتاريخ مريم السابق عن مُمارستها للسحر الأسود قبل توبتِها وعودتِها لنور المسيح..

–"هبلغها.."

في الداخل كانت ملامح الغضب واضحة على السيدة مريم كثيرًا، فخرجت شديدة الانفعال وصرخت فيه..

–"أبلغت صديقك، أنني لم أعد كما كنتُ في الماضي.."

لم يكن يتوقع عصبيتها، وصفها آدم بضيق صبرها، ولكنه لم يصفها بانعدام أدنى مستويات الذوق من أخلاقها..

–"أنا مقصدش أقطع خلوتكم، بس عمر بلغني إنك الوحيدة الي عندك الحل لكل ده.. قالي إنك أدتيله سلاح أو خطة أو طريقة لقتل الشيطان!"

سخرت من قوله..

–"بل أنا أبلغته أنني لن أشارك في قتل أحد.. أنا فقط منحته مُخدِّرًا، صديقك يكذب أو لم يُحسِن إيضاح الفكرة، منحته ذلك لأنني رأيتُ في عينيه الضَّعف وفي كونه فريسة سهلة للشيطان.. احتمال تساعده واحتمال لا.. "

أومأ آدم متفهمًا الحديث، بعدها حاول شرح سبب زيارته..

–"ممكن آخد من وقتك شوية.."

أجابته..

–"باختصار قل ما لديك.."

تردد آدم للحظات وشرع في السَّرد، ولكنه تراجَعَ عن الفكرة سريعًا وأخذ يلتفت حوله..

–"تعرفي توفري مكان محدش يسمعنا فيه؟!"

حسبته يقصد الراهبات..

–"الراهبات لا تهتم بحديثك.."

فقال موضحًا أكثر..

–"مش شرط الي يسمعنا بشر!.."

أومأت مريم بعدما فهمت ماذا يقصد بحديثه فأجابته مُطمئنة إياه..

–"لا تقلق.. ذلك المكان غير قابل للاختراق، إننا في حماية الرب هنا."

فبدأ آدم السرد..

-"أنا كنت مريض بالإيدز!.. وفي يوم قابلت عجوز وإداني أكسير الحياة وخفيت!.."

توقف آدم عن الحديث مُتابعًا رد الفعل على ملامح مريم الجامدة..

-"أهذا كل شيء؟!"

اندفع..

-"لا لا.. بس.. صُهيب بيقول إن أنا الي إديته العلاج ده في الماضي، وطلبت منه إنه يساعد عالم آثار عشان يوصل لقبر ما، اعتقد شخصية ساحر من بلاد فارس.. أظن اسمه مراش بن بوران الفارسي، ومعاه اتحرر شيطان أو كائن ما اسمه جسام.. صُهيب قالي إنهم كانوا صحاب بعدها اختلفوا.. كلام كتير مش فاكره كله، بس فاكر إنهم بيحاولوا ينفذوا طقوس ما لتحرير ساحر أعظم منهم بكتير.. اسمه موسى السامري، نفس الشخصية الي خلت اليهود تعبد العجل الذهبي.."

لم تعقِّب طوال حديث آدم فتوقف الأخير عن الاستئناف مُنتظرًا أي كلمة مؤيدة أو حتى معارضة ليتفهم موقف حديثه، فباغتته بسؤالها..

-"أين صديقك عمر الآن؟!"

أجابها آدم..

-"ناويين يقتلوا جسام.. بمساعدة بلال، نسيت بلال ده كان من أقرب أصدقاء جسام لحد ما وصله الشيطان للإعدام، معرفش إيه الي حصل بس عارف إنه ليه دور كبير في الخطة ديه."

نهضت مريم من مكانها وقالت دون النظر لآدم..

-"يتم خِداع صديقك الآن.. يجب أن تمنعه من إتمام خطته، لأنه يتحرَّك نحو الفخ الذي نصبه له بلال والشيطان، وبعدها أحضره معك إلى هنا!".

-"أنا مش فاهم.."

-"ليس هناك وقت.. نفذ ما أقوله لك."

-"ولو صُهيب سألني كنت هنا بعمل إيه، أقوله إيه؟!"

-"لن يسأل ولن يعلم شيئًا.."

-"بس هو.."

-"أخبرتك ألا تقلق.."

أومأ آدم وانسحب من المكان سريعًا، في الخارج استقلَّ دراجته البخارية وعاد لمكتب عمر، فوجده قد رحل، وحينما تساءل عن مكان ذهابه لم يمنحه أحد إجابة، فأخذت الأمور تترجم وتترتب

داخل عقله أكثر، جسام وبلال يخدعان عمر، إذن بالتأكيد الطقوس ستنفذ في أرضهم، وما أروع من البيت الملعون بالقرية! طالما كانت أرضًا خصبة لممارسة تلك الأمور.

حاولَ قَطْعَ الطريق عليهم لإيقافهم ولكنه تفاجأ من وابل طلقات النيران التي حاول بلال إسقاطه بها، بخفة وبرشاقة تفادها، وباستخدام سلاحه الذي سبق واشتراه من إحدى تجار المخدرات منذ كان يعيش معهم وتتبع خُطاهم في كل مكان.. واستمرت المطاردة حتى شعر آدم بحرارة درجاته، فعَلِمَ أن هناك طقسًا سحريًا يُمارَسُ عليه فهبَّ قافزًا من درجاته نحو من أعلى الكوبري..

ذكرت تلك الواقعة في كتاب الثالوث

وصلَ آدمُ للشاطئِ سابحًا وألقى بجسدِهِ على إحدى الصخور في ألمٍ وصَرَخَ بقوة لإخفاقاته المُتعددة والمستمرة، يعلم أنه كلما فشل في خطوة سيؤول به إما لمعرفة صُهيب تمرده وينتهي به الحال ملازمًا الإيدز من جديد أو في أحسن التقديرات سيعود من جديد لخطة صُهيب، وسيكتمل التحالف مع قبائل الجان وتلك الأمور الغريبة وغير المنطقية والتي لا يعلم هل كونه جزءًا من تلك الخطة وقد يقدمه أحدهم قُربانًا لأحد ملوك الجان في أي لحظة، فكر في العودة

لمريم من جديد لعلها تملك حلًّا مؤقتًا لما يحدث له، فاهتدى به الحال لذلك الأمر فهو أفضل الخيارات له الآن..

******

–"أين عمر؟! ألم أخبرك أنه لا بد أن توقفه.."

–"حاولوا يقتلوني.."

–"أغبياء.."

–"هو إيه الي هيحصل.."

–"يريدون الإيقاع بصديقك.."

–"قصدك هيقتلوه؟!"

–"لو نجح جسام في خطته، عمر سيكون قربانًا لملوك الجان، أما الآن نور الدين هو من يسعى جسام لقتله، نور الدين رمز البراءة."

–"المفروض أعمل إيه دلوقتي.."

–"يجب أن تذهب لابن بوران الفارسي، وتسرد القصة له بأكملها."

–"وبعدين؟!"

-"أخبره أنك لا تفهم شيئًا، وأنت كذلك حقًا.. لا تقلق ابن بوران سيحتويك ولو تأكَّد من ولائك له ستكون تحت ظلاله وحمايته.. هو الوحيد القادر على حمايتِك الآن."

-"وصُهيب؟!"

-"أخبره أنك ذاهب لابن بوران الفارسي.. أخبره أنك اكتشفت أنه فارس جسام، وأنه ستظل معه بشكل دائم حتى تتمكن من الإيقاع به في لحظات تقديم القرابين حتى لا يهرب، أخبره أنك ستكون عينهم مع الساحر الفارسي."

-"يعني أفهم صُهيب إني بعمل لصالحهم ووجودي مع ابن بوران هيكون عشان ميهربش أبدًا، وهفهم ابن بوران إني بعمل لصالحه عشان يفهمني أكتر إزاي كنت بتحرك بين الأزمنة وليه كان هدفي إني أحرره من القبر رغم إن أنا معرفش موضوع القبر ولا مكانه ولا حكايته إيه أصلًا.."

-"بالضبط"

-"وبعد كده؟!"

-"تعود لي مجددًا.."

-"طيب تفتكري هقدر أقنعهم كلهم بكده.."

–"لا أعلم، يجب عليك ذلك."

–"طيب صُهيب لو سألني إزاي عرفت.."

–"أبلغه أنك علمت مني.."

–"وابن بوران كيف اكتسب ثقته.."

–"حدثه عن استغلال جسام وبلال لعمر ونور الدين.. هو الوحيد القادر الآن على ردع جسام لبعض الوقت ومنح الجميع فترة سلام وهدنة.."

نَجَحَ آدم في تنفيذ كل ما أمرته به الراهبة مريم، واكتسب ثقة ابن بوران وذهب الأخير للقرية لإيقاف حرق سارة لنور الدين وعمر كما سبق وذكر تلك الواقعة بالكامل في كتاب الثالوث..

لم يشك صُهيب في صدق حديث آدم، وحينما سأله عن سبب ذهابه لدير الراهبات أبلغه بما حفظه من حديث الراهبة مريم، فلم يكذب الحديث، لأنه لم يجد سببًا لكذب حديث آدم، فهو مَنْ بدأ الأمر بأكمله..

تم تهريب جيهان من سجنها وحُكم الإعدام..

تم قتل جيهان وأخذ دماء ابن بوران..

تم تحرير السامري.. وتقديم ابن بوران الفارسي كأول قربان..

شرع جسام في رسم باقي الخطة لتقديم باقي رموزه للملك آشور..

رسم الخطة لتقديم سارة وجمال وبلال قرابين.. تمهيدًا لعودة كامل قوة السامري ومعرفة مكان المخطوطات، وتحرير الجيش ومنح صلاحيات كبرى لمملكة الجان..

السُّقوط

(٩)

في خشوعٍ كبير انحنى جسام احترامًا لموسى السامري، واستمرَّ على تلك الحالة لحظات حتى أذِنَ له الأخير بالنهوض، فببطء جَلَسَ جسام على ركبتيه، وظلت عيناه لا ترتقيان إلا سوى قدمي أعظم ساحر في التاريخ، تقدَّم موسى نحو الشيطان الذليل وبيد حانيةٍ ضَغَطَ على كتفه، وأجبره على الوقوف أمامه، فوقف جسام دون أن تتلاقى الحدقات بعضها ببعض..

–"كان غبيًّا حينما قرر الانفصال عنك!"

لم يرد جسام واكتفى بالإيماء إجابةً على الحديث، فأكمل السامري..

–"كنت الجانب الذي أحببته في ابن بوران الفارسي، أنت تلميذي المُطيع، جانبك الآخر كان المتمرد ويستحق ما ناله.."

أجابه جسام بخشوع..

–"بالتأكيد سيدي.."

تراجَعَ السامري خطوتين نحو الخلف، وتحرَّك ناحية كرسي في نهاية الغرفة الخالية من كل شيء عدا بعض الشموع المنتصبة نيرانها في ثباتٍ وصمود غير طبيعي، كانت موجودة في أركان الغرفة الأربعة، جلس السامري على كرسيه المُطعَّم باللَّون الذهبي والذي اتخذ هيئة ملكية قديمة نحته السامري مؤخرًا ليقدمه هديةً لسيدهِ، رفع السامري قدمًا فوق الأخرى، هَبَطَ جسام في بطءٍ على ركبتيه مجددًا بينما قال موسى السامري..

-"قطعتَ شوطًا كبيرًا على مدار سنواتك الأخيرة لتكسر قيودي، ما الذي دعاك لفعل كل هذا؟! بحسب ما رأيتُ منك أنك تمقُت البَشَرَ، بينما أنا كنتُ دائمًا أستعبدكم وأسخِّرُكم لخدمتي.."

رَفَعَ جسام رأسه لحظاتٍ ناحية السامري وبعدها هَبَطَ ببصره نحو الأرض مجددًا، وأجاب بلسانٍ مُرتعش..

-"شرفٌ لنا سيدي خدمتك، عالمي كله تحت إمرتك.. فماذا سنريدُ أفضل من حاكم عادل سيعطينا جزءًا من أرضنا المسلوبة على أيدي بني قومه؟! كنتَ دائمًا عادلًا، منبوذًا لكونك الحكيم.. أخذت لقب ابن الشيطان لكونك أردت فقط منح الجان حقَّهم."

ضحك السامري ساخرًا..

-"لا تُعظِّم الأمور، أنا أنوي ذلك حقًّا لكنني أريد مِنكم الكثير.."

قال جسام..

-"لا يهم سيدي.. المهم أننا سنعود مجددًا"

قال السامري غير مصدقٍ حديث جسام..

-"جسام، أعلم أن أمر عودة قبيلة الجان الأحمر للأرض ليس ما يهمك.. لماذا منحتني الحرية؟!"

اندفع جسام في احترام..

-"عفوًا سيدي.. ما لي أن أمنحك الحرية أبدًا.."

ابتسم السامري..

-"دعنا من المسميات.. فقط أخبرني الحقيقة"

صمت جسام فأردف السامري..

-"كنتَ تريد قتل ابن بوران الفارسي، كنتَ تريد الخلاص!"

توتر جسام ولم يرد ولكن السامري أضاف..

-"أنا لست غاضبًا.. أنا أحترم رغبتك، ابن بوران الفارسي كان يجب أن يموت!"

أومأ جسام في هدوء ولم يُضِفْ أي كلمةٍ..

–"حدثني عن القرابين، نريد العودة للميدان في أسرع وقت ممكن! جيش العمالقة متحمس كثيرًا لدهس جبابرة الأرض، أتعلم حقًّا قبيلة الجان الأحمر مكان المخطوطات؟!"

أجاب جسام..

–"يقول الملك آشور، إنهم في مكان شديد الحصانة!"

–"والقرابين؟!"

–"الفارس قُتل وقدمت جثته للملك آشور كأول قربان."

–"والفيل؟!"

ابتسم جسام في خُبثٍ..

–"جمال كان مصيره شديد الأسى، ونهايته كانت سريعة، فلم نحتَجْ لخطط، كل شيء تم بشكل غير مُتوقَّع."

***

عاد جمال لبيته قرابة منتصف الليل بعد يوم طويل وشاقٍّ من العمل في المستشفى الخاص به، كانت الحياة استتبت بعض الشيء بعدما قام بقتل جيهان كما طلب منه جسام، ولم يسمع قط عن ظهور أي جُثثٍ بالمكان، فصدق أن الأمر انتهى بالفعل وتناسَى ما حدث، وحاول التعايُش مع الأمر، وكلما آلمه ضميرُه ذكَّرَ نفسَه أنه

كان العاجز الضعيف، فيهدأ ألمُه قليلًا. كان يحمل صندوقًا صغيرًا به عقد ذهبي ابتاعَهُ لزوجته منذ قليل..

-"ريم.."

لا رد، يعلم أنها لا تنام أبدًا قبل قُدومِه..

فشك أن تأخره زاد عن الحد لدرجة دفعتها لتغفل دون إرادتها..

-"ريم.."

لا إجابة، تحرك نحو غرفة نومه، فكانت زوجته بالفِراش كما توقَّع، اقترب منها مبتسمًا من جمال هدوئها وهيئتها الملائكية. لمسَ قدميها..

-"ريم.."

صُعق من برودة وتخشُّب جسدِها، فدفعها بقوةٍ مذعورًا..

-"ريم.. ريم.."

لا إجابة، لا يصدق ما يراه أمام عينيه..

-"ريم.. ريم.. أرجوكِ"

لا نبض، لا دقات قلب..

كل شيء ساكن..

غادرت رُوحُها في سكون..

-"ريم.. لا يا ريم.."

تغلبت عليه الدموع وصارت تنهمر منه بقوةٍ..

-"أنا قتلت جيهان عشانك.. قالي روح مقابل روح.. مقاليش إنه هياخد الروحين.. أرجوكِ متسبنيش.."

استمر الحال واستمرت كلماته ولم يحصل على إجابة فنهض صارخًا..

-"جساام.."

لا جسام..

لا ريم..

لا شيء..

بغضب سقط داخل حالة هيستيرية وبدأ في تهشيم كل شيء حوله، وصراخاته لا تنقطع أبدًا، بعدها هُيِّئَ له أنه سمع صوت ريم تناديه، فعاد إليها، وجدها على نفس حالتها جثة هامدة..

-"ريم؟!.."

لم يشعر بنفسه وتحرَّك نحو شُرفته كالمغيَّب وضغط بيده على السور الخاص بها واعتلاه، نظر للأعلى، وصار يتمايلُ ببطءٍ نحو الخلف، بدأ اتزانه بالاختلال، فأغمض عينيه، واستسلم لتيار الهواء..

أومأ موسى السامري في رضا..

–"عظيم!.."

ابتسم جسام..

–"نعم سيدي.. خدمنا الحظ.."

تساءل السامري..

–"وماذا عن القلعة؟!"

صمت لحظات جسام يفكر، فاندفع السامري..

–"أفشلت؟!"

أجابه جسام في الحال..

–"لالا سيدي، لم أقصد هذا.. ولكن أمر سارة كان أكثر تعقيدًا من جمال."

***

تجسد جسام في هيئته الحقيقية تلك المرة لمقابلة سارة، كان كلاهما يعلمُ أنها المرة الأخيرة، يومها ظلت تنظر إليه بهيئته المقززة وبعدها انفجرت ضاحكة..

–"حسبت شكلك مخيفًا أكتر، ده همَّان مرعب عنك"

شعر جسام بالإهانة ولكنه تجاوز الأمر..

-"أكيد عارفة إن ديه المرة الأخيرة الي هنتقابل فيها.."

أومأت ضاحكة..

-"عارفة.."

صمت كلاهما لحظات ولكن سارة قطعت الهدوء..

-"قولت طلب مقابل طلب.. رغم إنك أخدت دمي بدون مقابل!"

أومأ جسام وظَلَّ صامتًا، فأردفت سارة..

-"تسمع مني ولا أسمع منك؟!"

قال جسام..

-"قولي طلبك.."

ردت..

-"القرية.."

لم يفهم جسام..

-"يعني إيه؟!"

قالت بصرامة..

-"طلبي الأخير، إن محدش لا يخرج ولا يدخل للقرية ديه تاني."

تعجب جسام..

-"وأنا هقدر أعمل كده إزاي؟!"

أجابته..

-"حراس من الجان الأحمر.."

اندهش أكثر..

-"إزاي بتعرفي؟!"

ضحكت ساخرة..

-"صحيح همَّان مُتعب في طلباته، لكن مفيد بردو."

أومأ جسام موافقًا على طلبها فأضافت..

-"ها وإنت؟!"

أجابها..

-"الشاذ حفيد ابن بوران.. آدم."

نظر جسام لساعة الحائط المعلقة على الحائط وبعدها أردف..

-"هو موجود في القرية حاليًا.."

قاطعت الحديث..

-"اعتبره انتهى.."

اندفع جسام معدلًا الأمر..

–"لا، مقصدش إنه يموت.."

فتساءلت..

–"أمال؟!"

أجابها..

–"تجبريه على رحلة.. لازم يسافر خلال الزمن ويبلغ صُهيب إنه يساعد أحمد رمزي على تحريري وابن بوران من المقبرة!"

أومأت سارة في تفهُّمٍ..

–"اتفقنا!"

قال جسام قبل أن يغادر..

–"لازم تنجحي، لولا خروجي عمرك ما كنتِ هتاخدي حقك."

**

قال السامري..

–"مثير.. وذكي.."

أجابه جسام..

–"هذا ما تعلَّمناه منك سيدي.."

ابتسم السامري في غرور..

-"أكمل.."

**

حاول أهل القرية الهجوم المباغت على بيت سارة للإمساك بها بعدما شاع بالمكان كله عن كونها حليفة الشيطان الحقيقية، وأنها مَنْ كانت تُشعلُ النيران في بيوتهم، وأنها المتسببة الرئيسية في قتل محمود بعدما قام بتصويرها وهي تقوم ببعض طقوسها الشيطانية. فلما حاول أهل القرية التجمهر أمام بيتها في الليلة نفسها التي غادر فيها جسام المكان للمرة الأخيرة خرجت لهم من النافذة ترتدي السَّواد، نَظَرَت إليهم بغضبٍ، فصاح أحدُ الفتيان..

-"كشفنا كل حاجة.."

ابتسمت في البداية وهي تنظر لنفس الفتى بتركيز شديد مُتجاهلةً جَمْعَ البشر فبث الخوف في قلبه، وتراجَعَ للخلف قليلًا، فضحكت بقوةٍ ساخرةً، قطع ضحكتها صوت آخر قادِمٌ من الجهة اليسرى للتجمْهُر..

-"هنحرقك يا سارة.."

شرد ذهنها لحظاتٍ والابتسامة نفسها لا تغادر ملامحها وقالت..

-"نار!.."

صمت الجميع يراقبها بعدها أردفت..

-"بحب النار.."

بدأت رائحة شواء تخيم على المكان مع اندلاع صرخات الفتى الأول، أخذ يجرى في المكان متألمًا والجميع يبتعد عنهُ، والرعبُ يُسيطر على الجميع، ينظرون تارةً لسارة وتارةً للفتى الذي بدأت أوردته في الاحتراق، بدأت بقع حمراء تظهر على جسده بالكامل، وتساقَطَ عن وجهِهِ غِطاؤه الجلدي حتى سَقَطَ على ركبتيه وقد صار كتلةً دمويةً حمراء قبل أن يشهَقَ للمرة الأخيرة ويسقطَ بين الجميع جثةً هامدة..

-"من النهاردة كل حاجة هتبقى بحساب.. مفيش حد هيدخل ولا هيخرج من القرية ديه، مفيش غير قانوني أنا، أي محاولة للتمرد عقابها النار،أي محاولة.. أي محاولة من أي شخص مش هتعجبني مصيرها الموت.. مفيش شرطة، مفيش حكومة، إنتم معزولين عن الدنيا، وصدقوني ده لمصحتكم إنتم.. برة العالم كله شر، انما هنا هيسود العدل وأي محاولة لكسر العدل ده، عقابه النار.. النار بس."

ملامحهم هائمة لا تصدِّقُ ما يحدث حولهم، أخذ كل منهم يُغادِرُ الموقعَ نحو بيته مهرولًا، جميعهم تقريبًا فكروا في الهروب ليلًا، ولكنهم خائفون من الفكرة نفسِها، فلا أحد يعلم مَنْ يعاون سارة، مَنْ يمنحُها تلك القوة وتلك النظرة القاتلة، أهو جانٌّ أم قبيلة كاملة؟

الكل غادر المكان، ولكن سارة صاحت من جديد منادية لخمسة رجال في الأربعينيات من أعمارهم عدا واحد كان في العشرينيات..

–"إنت..وإنت.. وإنتم.. تعالوا."

توقف الخمسة في الحال ونظروا إليها في خوفٍ..

–"هتيجوا معايا مشوار مهم.."

أومأ جميعهم في ذُلٍّ تجنبًا لبطشها الذي ما زال لا يعرف أحدٌ ما مِقدارَه، فقد تعددت حالات الحرق والقتل في الأيام الأخيرة، بيوت محترقة وأسهم تخترق الصدور، كل شيء تحوَّلَ في القرية الهادئة لكابوسٍ مُرعبٍ لا تفسير له ولا أحدَ يعلمُ نهايتَه أبدًا.

***

موسى السامري..

–"كيف حولتها لتلك الشخصية؟!"

أجابه جسام..

–"صدقني ذلك الأمر الوحيد الذي لا أفهمه حتى الآن، هي مَنْ تحولت بإرادتها"

السامري..

–"وأين كان آدم في تلك اللحظات؟"

ترجَّلَ آدمُ عن درجاته البخارية، وأخذ يُتابِعُ مشهد تجمْهُر سكان القرية أمام بيت سارة وصيحاتها وحَرْق الفتى وغيرها من الأمور السابق سَردُها، أخذ يتابع في صمتٍ وفي ذهولٍ أيضًا، فقط سمع كثيرًا عن سارة، ولكنه لم يكن يتخيل أن الأمر بهذه الصورة المرعبة، فلم يجد فيها جانبًا إنسانيًّا مُضيئًا، يجب إنقاذ حياتها بسببه، برزت أمامه مجرد مسخ تتلذذُ بتعذيب البشر.

تراجَعَ كثيرًا عن فكرة تدخله لإنقاذ سارة من تقديمها قربانًا للملك آشور، فبدى أمامه أنه الحل الوحيد لإنقاذ هؤلاء من تلك المرآة الساحرة، للمرة الأولى الذي يؤيد فيها آدم تقديم أحدهم قربانًا، استلقى درجاته من جديد، وحاول الخُروجَ من القرية، ولكنه حينما شارفَ على الابتعاد شعر باختلال توازنِه كأنه يسبحُ عكس تيار البحر، أو بتعبير أدق كأنه يحاولُ اختراقَ موجة تسوماني، شعر بألم شديد في وجهه كأن أحدًا وجَّه له لكمةً قويةً فسقطَ على إثرها أرضًا، شعر بأن عظام إحدى قدميه تهشمت وأخذت الدماء تنسال من رأسه، فمَسَحَ دماءه وحاول النُّهوضَ، لم يستطع وارتعشت الصورة أمامه، فعَلِمَ أنه على وشك الانغماس داخل حالة إغماء، ولكنه رَمَقَ من بعيدٍ سارة وحولها خمسةٌ من رجال القرية قادمين نحوه، فتمنى لو مات الآن، فمصيرُه مع تلك المرآة يعلم أنه لن يكون بالأمر اليسير.

السامري..

-"مِنْ أين علمتَ بوجود صُهيب؟!.."

جسام..

-"تتبعت الماضي، طالما حاول ابن بوران داخل القبر التواصُلَ مع أي إنسان أو جان لمنحه الحرية، فكان لا بد من سببٍ في نجاحه المرة الأخيرة، وحينما نظرتُ للأمر عن كثبٍ وجدتُ أن صُهيب لعب دورًا مهمًّا في ذلك الأمر.. وباستمرار البحث وجدتُ أنه أتمَّ ذلك بفعل زيارة آدم له، تلك التي تمت عبر الزمن، والتي لا أعلمُ كيف فعلها حتى الآن!"

السامري..

-"ولماذا يرغب آدم في تحريركم؟!"

جسام..

-"أعتقد أن آدم هو آخر نسل ابن بوران الفارسي، أراد إرث جَدِّه الأكبر."

السامري..

-"حسنًا، أليس المفترض بقتل المترابط أن تُقتلَ أنتَ؟!"

ضحك جسام..

-"سيدي، هذا لو تم قبل أن يعود آدم للماضي ويخبر صُهيب بضرورة إنقاذنا، أما لو فعلها بعد ذلك فلا أهمية للأمر."

السامري..

-"أنتَ عبقريٌّ.."

قال جسام باحترام..

-"أنتَ المُعلم.."

حينما استيقظ آدم وَجَدَ نفسه على كرسيٍّ مُقيدًا، حوله الرجال الخمسة وسارة تتوسَّطُهم بوجهِها الممسوخ وجسدها النحيل وشعرها غير المُنسَّق وملامحها المخيفة، ابتسمت فبرزت فجوات بين أسنانها..

-"كلب ابن بوران الفارسي.. التابع"

بخوفٍ قال آدم..

-"إنتِ عاوزة إيه؟"

أومأت ونظرت للرجال مِنْ حولها، بعدها ردت على السؤال بآخر..

-"إيه الي جابك هنا؟!، تقتلني زي ما سيدك كان عاوز؟"

–"جيت عشان أنقذك، جسام هو الي هيقتلك عشان تبقي قربان لجيشه."

–"جسام الوحيد الي قدر يساعدني، تعرف.. جميل أوي إحساس القوة، كنت مستغربة زمان ليه اغتصبوني؟! ليه بلال استغلني في بيته؟ وليه نور حاول يحقق نجاحه على حسابي؟ لأنهم كانوا يقدروا! إحساس القوة وإنك تقدر تعمل أي حاجة في أي حد مُمتع.."

–"سارة.."

قطعت حديثه بصفعةٍ قويةٍ على وجهِه..

–"دلوقتي لازم تزور صُهيب، وتبلغه إنه يحرر جسام وابن بوران.. لازم تبلغه إنه يساعد أحمد رمزي، لازم كل شيء يحصل زي ما حصل، لولا ده مكنتش إنت هتبقى ساحر ولا أنا هبقى قوية.. لازم كل حاجة تحصل زي ما حصلت بالظبط.."

–"بس معرفش هقدر أعمل كده إزاي.."

–"طالما ظهرت في الماضي، يبقى قدرت فعلًا إنك قادر تعمل كده.. لازم تعملها دلوقتي قبل ما أخليك تعملها بطرق كتيرة تانية.. مش هتخرج من هنا غير ما تنفذ ده، حتى لو فكرت تهرب بالموت مش هسيبك تموت.. أظن إنت المترابط الي بيقولوا عليه، إنت

الوحيد الي لو انتحرت دلوقتي مش هيكون ليك وجود في الماضي، وبكده جسام يختفي من الوجود! إنت حفيد ابن بوران الفارسي".

كانت تلك الليلة الأسوأ في حياة آدم، فقد شَهِدَ فيها اللَّكمات تهبط عليه من جميع النواحي، تعرَّض لأشد أنوعِ التعذيب لإرغامه على السفر عبر الزمن! صار يصرخ بكونه لا يستطع فعل هذا، ولكن سارة لا ترى سوى هدفها، فيسبها تارةً، ويلعنُ نفسَه تارةً أخرى، يتمنى الموت في لحظةٍ وفي أخرى يتمنى تنفيذ رغبتها وإنهاء ذلك التعذيب. كلما اقترب من حالة الإغماء تهدأ اللَّكماتُ ويتركونه قليلًا ليستعيد جزءًا بسيطًا من عافيتَه، فتسألُه مجددًا الرحيلَ وتنفيذ أوامرها، فيكرر عجزه، فيعود التعذيب أشد وأقوى. وحينما يئست سارة في تلك الليلة قررت منحه وقتًا حتى ساعات الصباح لتفكِّرَ في طريقة أخرى لإجباره على تنفيذ ما تريد.

في فجر اليوم ذاته ساد سكون ظاهري القرية، الكل مختبئ داخل بيته في تلك القرية المنعزلة، كلما حاول أحدٌ الخُروجَ لم يتمكَّنْ، كأن الرياح تدفعُه نحو الداخل، كلما حاول أحدٌ الاتصال بالشرطة لا استجابة يتلقَّاها، الجميع في القرية يعلم الآن أن لا مُخلص من سارة سوى الخالق وحدَه. يومها تشكل همَّان لسارة متعجبًا من كمِّ التعذيب الذي هبطت به على جسد الفتى..

–"ميعرفش.."

رفعت حاجبها بإصرار..

-"هفضل أضرب فيه لحد ما يعرف.."

استنكر همَّان تصرفها وعُنفها غير المبرر ومجهودها المبذول هباء..

-"إزاي؟!، كلامك مش منطقي"

صمتت لحظات، بعدها ابتسمت وتهلَّل وجهُها..

-"أظن عرفت هعمل إيه.."

صباح اليوم التالي أمرت همَّان بإحضار أحد أربعة اطفال من القرية، وحينما حاول الاستفسار نهرته بشدةٍ، فانحنى لها احترامًا وتحرَّك منفذًا الأمر.

وقفت سارة أمام آدم..

-"لازم تبلغ صُهيب دلوقتي.."

أجابها صارخًا..

-"معرفش.. ليه مش مصدقاني، لسه مجاش الوقت الي أكتسب فيه المهارة ديه."

أومأت في يأسٍ وأشارت لأحد المساعدين لها من رجال القرية، فتحرَّك وأحضر لها أحد الأطفال الذين سبق وخَطَفَهم همَّان، كانت

طفلةً في الثالثة من عمرها، مذعورة مما يحدث حولها، تصرخُ مُنادية أمها..

وضعت سارة يدها على رأس الطفلة ونظرت لآدم وقالت بصوت بحاد..

-"روح لصُهيب.."

نظر آدم للفتاة الصغيرة وهو يعلم داخله أن سارة يستحيل أن تُؤذيَ تلك الفتاة، فقد سبق وقرأ قصة حياة سارة وكمَّ الظلمات التي تعرضت لها، فعَلِمَ - رغم كل ما حدث منها - أن داخلها نقطة مضيئة نحو الفتيات أمثالها..

-"معرفش.."

ابتسمت له، وبحركة سريعة خاطفة هشَّمت عُنُقَ الفتاة، فسقطت في لحظتها جثة هامدة وسط ذهول مُساعديها الذين لم يتوقعوا تصرفًا مثل هذا، فصاح فيها أحدهم..

-"ليه كده.."

وشَرَعَ آخر في الانقضاض عليها فصرخت..

-"همَّان.."

فتثبتهم جميعهم في مكانهم، كانوا مقيدين عاجزين عن الحركة، ونظرت لآدم من جديد..

–"روح لصُهيب.."

أخذ يصيح فيها..

–"معرفش.. معرفش، أقسم بالله ما أعرف..."

أومأت وطلبت من همَّان جلب الطفل التالي، لحظات ودخل طفل صغير كان في الرابعة من عمره يبكي بحُرقة..

–"عمو، اسمع كلامها.."

وضعت سارة يدها على رأسه وشرعت في تكرار التصرُّفِ نفسِه، فصاح آدم ليوقف ذلك..

–"استني، استني يا سارة.."

تركت الفتى مكانه واقتربت من آدم..

–"هتروح؟"

أومأ بالإيجاب، فانتظرت لحظات أي طقوس له فلم يفعل، فعلمت أنه ما زال مُتردِّدًا فلكمته بقوةٍ..

–"يلا.."

لم تمنحه فرصة للحديث، وهبطت بلكمةٍ أخرى أطاحت بأحد ضروسه فانسال خَطٌّ دمويٌّ رفيعٌ من جانب فمه ..

–"يلا.."

ركلت الكرسي ليهبط على جانبه، وتوالت ركلاتُها وسط صرخات جميع مساعديها وبكاء الطفل وتألُّم آدم، وصيحات سارة بعصبيةٍ، كانت المرة الأولى التي يشعر فيها آدم باهتزاز الأرض وتراقُص الحوائط من حوله، شعر في البداية أنه قريبٌ من وفاته أو غياب الوعي على أقل تقدير وهو لا يمانع في كلتا الحالتين، صار لا يشعر بالركلات، اختفى كل الألم، وفجأة وجد نفسه طائرًا فوق جسدِه، فعلم أنه في الحالة نفسِها التي طالما وصفَها الأطباء جهلًا بأحلام اليقظة، ولكن شعوره فيها كان مختلفًا حيث شعر أنه ليس مُتحكمًا فيها بالكامل هذه المرة، صار يتحرَّكُ بسرعة مُبتعدًا عن المكان، حتى خرج من القرية بأكملها، وصار يطيرُ في كل مكانٍ دون تحكُّمٍ بسرعةٍ أسرع من البرق، حتى وجد نفسه أمام صُهيبٍ في زمن غير الزمن، سمع في باطن أذنه صيحاتٍ قادمة من زمنه..

–"هقتله.. زي ما قتلتها.."

فصرخ آدم في صُهيب الواقف أمامه..

–"رمزي.. لازم تساعد رمزي.."

كانت كلتا يدي سارة على عُنق الفتى، شهق ليعود لواقعه صارخًا..

–"خلاص.. خلاص أنا نفذت.."

ابتسمت..

-"ميمنعش أن أنا هقتله بردو."

في تلك اللحظة شعر جميع المساعدين أن قيودهم قد زالت، فلم يفكر أحدهم مرتين، وهَجَمَ على سارة بقوةٍ، وصاروا جميعًا يضربونها بقوة فحاولت طلب النجدة من همَّان، ولكنه لم ينفذ الأمر، وبقي على جانب الغُرفة يُتابعُ المشهد، فصرخت فيه مجددًا فردَّ..

-"أوامر جسام.."

فعلمت أنها قربان!..

علمت أن جسام كان يعدُّها لتصبح فريسةً لأهل القرية خاصة بعدما نفذت طلبه الأخير..

لم تمر لحظات قبل أن تنتهي حياتُها.. وتصبحُ جثةً هامدة..

(١٠)

ضحك السامري بقوة..

–"رائع! سقطت كل العصافير بحجرٍ وحيد.."

ابتسم جسام في ثقةٍ دون ردٍّ، فأضافَ السامري..

–"ينقصنا أحدٌ.. آه.. الجندي.. بلال، كيف قدمته قربانًا؟!"

اتسعت ابتسامة جسام أكثر، وصار أكثر إشراقًا، وتهلَّلَ وجهُه لوصوله لتلك المرحلة التي تطلع إليها من أول وهلة، وهم على أعتاب تحرير أعظم جيش توارى أسفل ردمٍ في ظروف غامضة..

–"بلال كان الأكثر ولاء بين جميع القطع، فسمحتُ لنفسي لأمنحه وسامَ شَرَفِ الخدمة، قمتُ بتدريبه طوال الفترة الماضية على السمع والطاعة ومحو إرادته، فصار كالحاضر الغائب، آلةً تنفِّذُ ما تُؤْمَرُ به.."

سأله السامري..

-"يمكنك أن تقول إنك تُسيطرُ على عقلِه وتختصرُ تلك المقدمة الطويلة."

شعر بالحرج فقال باختصار..

-"كل ما أريد قوله إنني أريد تقديمه قربانًا للملك آشور عن طريق سيادتك سيدي.."

أخرجَ جسام من ردائه خِنجرًا صغيرًا، وتقدَّم ناحية موسى السامري، وانحنى له باحترام مُقدمًا الخنجر له، فأخذه السامري باسمًا، فتراجَعَ جسام بخطواتٍ بطيئةٍ بعدها قام بالنداء...

-"بلال.."

حينما دخل بلال كان في حالة شُرودٍ، كان جامد الملامح، يتحرك بخطواتٍ ثابتةٍ، كان يخطو خطواته الأخيرة نحو فِراق روحه، كان مشتتًا، غائب الذِّهن، بنفس الطقس الذي *طالما مارسه على يوسف زوج جيهان وأجبره على الانتحار.*

من كتاب لعنة جسام

وعندما اقترب السامري لذبح بلال، فتح بلال عينيه وضاقت حدقتاه، وأخرج من خلفه خِنجرًا صغيرًا، وبشكلٍ سريع طعن السامري في رقبته ثلاث مراتٍ متتالية ليتحشرج الأخير في ذهولٍ، ويصرخُ جسام غير مُستوعبٍ ما رآه للتوِّ، يعلمُ جسام لأول مرة أنه لا يفهم ما

يدور من حوله، يسقط السامري، وشلَّالُ الدِّماء لا يتوقَّفُ من رقبته، ينتفض جسدُه للمرة الأخيرة قبل أن يتخشَّب، وتُفارِقه رُوحُه الخالدة.

-"كيف؟!"

صرخ بها جسام وانطلق ناحية بلال، فلكمه لكمةً عنيفةً أطاح بها مُقلة إحدى عينيه قبل أن يظهر من عدمٍ كياناتٌ عسكريةٌ تابِعةٌ للجانِّ الأحمر، يحاول جسام التوسُّل إليهم، ولكنهم لم يسمعوه، وبدؤوا في إلقاء العزائم عليهم حتى سقط مُتخشِّبَ الحركة، فشرعوا في تقييدِه..

-"أرجوكم.. كل شيء قابل للإصلاح."

قال سعدان وكان قائدهم..

-"أخبرتُهم، أن نهايتك الإعدام! أو الأسر.. أنتَ أخفقتَ، تَلاعَبَ بك البَشَرُ، وبفعلتِك وسماحِك بقتْلِ السامري سندفعُ ثمنًا غاليًا جدًّا أمام جميع الممالك"

صَرَخَ جسام لمرة أخيرة قبل أن يختفي مع الكيانات داخل ظلمات لا نهائية.

**

الخاتمة

استيقظتُ بألمٍ شديدٍ في رأسي، رمقتُ المكان من حولي فبدا غريبًا بالنسبة لي، علمتُ بعدها أني سقطتُ داخل غيبوبة منذ اللحظة التي تعرَّض فيها لحادثٍ خطير! أخبرهم الأطباء أنني قد لا أعود للوعي مُجدَّدًا، ولكن المقربين أصرُّوا على بقائي موصلًا بالأجهزة حتى حدثت المعجزةُ ونَشَطَ الخامِلُ من خلايا مخِّي في لحظةٍ ما من تلقاءِ نفسها، بعدما أقرَّ الجميع أنها شِبْهُ ميتةً بالفعل.

تلاشى من دماغي جسام وابن بوران ولميس، فعلمتُ أن كل ما مررتُ به كان مجرد حلم! أو كابوس بتعبيرٍ أدق، قصة طويلة عُرِضَتْ أمامي بحبكة مُحكمةٍ وانتقالات بين أزمنة مختلفة، شاهدها كفيلمٍ يُعرض أمام عيني، كأنني كنتُ في عالمٍ مُوازٍ، كان الأمر صعب الاستيعاب في البداية، ولكنني مع الوقت تجاوزتُه، ولم أعد أفكِّرُ فيهم مُنشغلًا بقدمي التي تأبى تنفيذ أوامري، وأسناني التي فقدتُ بعضها نتيجةً للحادث، كانت ذاكرتي ليست على ما يُرامُ بشكلٍ كاملٍ، وليس معنى هذا أنني كنتُ فقدتها بالكامل، بل كان وَضْعُها بين هذا وذاك.

بعد أسبوعٍ أخبرني الطبيب عن قدوم زائر يودُّ مُقابلتي فأومأتُ بالموافقة، فدخل عليَّ شابٌّ حاملًا باقة من الورود في يده، ابتسم لي فلم أتعرفه في البداية، رجَّحت أن سبب هذا مُتعلِّقٌ بذاكرتي التي لم تتعافَ بشكلٍ كاملٍ، ولكن فجأة تذكرته! فسألته..

–"آدم؟!"

أومأ بابتسامٍ شاعرًا بالراحة لكون تلك الرحلة الطويلة لم تكن هَدَرًا، وأن الكاتب مُتذكِّرٌ بالفعل ما شاهَدَهُ في غِيابِ وَعيهِ..

كنتُ في وقتها أحملُ عشرات بل مئات الأسئلة غير المفهومة!

سألته مجددًا..

–"بس إزاي؟!"

تحرك دون أن أطلب منه ناحية الكرسي المجاور لفراشي، حاولت النهوض، أمسك يدي وطلب مني ألا أفعل ذلك، جلس على المقعد وأجابني..

–"هفهمك كل حاجة.. بس لازم نرجع للأول شوية."

***

نور الدين

–"من ساعة حادثة أخويا وأبويا معيشنا في سجن مش قادر يفهم إن الموت عارف عنوان سريري برضه.."

من كتاب لعنة جسام

***

تذكرت الإشارة الوحيدة تقريبًا لي في الأحداث كانت بكوني ميتًا!..

ولكنني لستُ كذلك..

أظن!..

–"ليه أنا كنت ميت في الحلم؟!"

هَزَّ رأسه مُتوقعًا سؤالي، فردَّ بدون تفكير..

–"مكنش ينفع تكون حي، لو شوفت نفسك كان كل حاجة باظت.. ده كان التغيير الوحيد الي عملته أنا"

لم أفهم مقصده!

–"الوحيد؟! يعني الباقي كان حقيقة"

صمت لحظات يفكر في أفضل صياغة يمنحني بها إجابة لا تسبب في طرده:

-"آه، بالنسبالك تعتبر مستقبل. أما بالنسبالي فكل ده حصل بالفعل."

كالعادة لم أفهم، ولكنني متذكر جيدًا أن آدم كان بارعًا في التنقل بين الأزمنة، ولكنني لم أغفل أن جميع انتقالاته كانت بوعيه فقط، وليس بجسده كما هو واضح أمامي الآن.

-"مش فاهم."

-"أنا مش من زمنك.. حاولت تغيير الماضي كذا مرة، حاولت إني أمتنع عن السفر الصُهيب، ومطلبش منه المساعدة لرمزي بس سارة أجبرتني، حاولت أمنع جمال من الوصول لجسام ولكني فشلت، حاولت أوقف خطة بلال وجسام يوم الحرق، ولكني بردو فشلت.. حتى أما قررت أنتحر كان الوقت عدا ومعدش بقى ينفع، معرفتش إن أنا المترابط إلا بعد فوات الآوان..كنت دايمًا بفشل، ففكرت ألعب بطريقة تانية خالص، قولت لنفسي: ليه دايمًا بحاول أقلد نفس خطط الشطرنج القديمة؟ ليه مصنعش خطتي بنفسي؟"

مغرور!..

لم أشعر في تلك اللحظة إلا بكونه مغرورًا، ولا أفهم سببًا لذلك، رأيته يفشل دائمًا..

–"خطة جسام فشلت على أي حال، وبقي أسيرًا عند الجان الأحمر.. إزاي ده حصل؟! المفروض بلال كان مغيب! "

شردَ ذِهْنُه لحظاتٍ يتأمل الماضي الذي يُعَدُّ المستقبل بالنسبة لي! بعدها أجابني..

–"لميس، هي صاحبة الفكرة ديه، هي الي كانت تعرف الطقوس اللازمة عشان الخنجر يقدر يقتل السامري، وعدنا بلال بالترقية، زي الشطرنج بالظبط، بلال كان العسكري والعسكري في أي لعبة شطرنج مصيره يا الموت يا الترقية، حاولنا نفهمه المصير بتاعه وإنه آجلًا أم عاجلًا هيكون قربان للملك آشور، أما لو سمع كلامنا هنرقيه لمكانة أحسن كتير، فمقدرش يقاوم إنه يبقى الملك! كانت عبقرية حتى هي الي منحتني علاجي!"

ابتسمت بشكل أحمق جدًّا، لم أفهم أغلب ما قاله ..

–"ترقية إزاي؟! ولميس مين؟! تقصد عاهرة المعبد! مفتكرش إني شوفتها تاني من بعد يوم الهجوم على القصر في الماضي."

تراجع سريعًا عن حديثه، شعر أنه تجاوز ذكائي..

–"آه، حسبتك عرفت أن الراهبة مريم هي نفسها الكاهنة لميس!"

تذكرتُ اختفاء مخطوطات موسى السامري بعد أسر مراش بن بوران الفارسي في القصر، فبدا الحديث منطقيًّا جدًّا الآن، سرقت المخطوطات بواسطة لميس ولم تخبر أحدًا بذلك قط، وقامت بتنفيذ طقوس الخلود كما سبق وفعلها ابن بوران..

-"طيب يعني إيه هيبقى الملك؟! أعلى ترقية ممكن يحصل عليها العسكري إنه يبقى وزير!"

ضحك آدم..

-"قولتلك لازم نصنع خطتنا بنفسنا! قوانين الماضي انتهت."

أومأت، فأردف..

-"بلال بعد أما قتل السامري، اختفى واتحبس في نفس الجزيرة الي كان فيها موسى السامري قبل ما يحرره جسام، بلال طمع بدون ما يفهم.. حب يحل محل الساحر العظيم ولكنه مكنش يعرف إنه هيحل محله في الأسر.. مش في الحياة"

نهاية عادلة حقًّا لذلك الحقير!

-"نور راح فين؟! من يوم الحرق مظهرش تاني."

-"باكره أمط في الأحداث!، كنت خايفك تصحي في أي وقت.. فكان لازم أحذف كل حاجة ملهاش لزمة."

أومأ، ففهم أنني ما زالت بحاجة للإجابة..

-"بعد يوم الحرق، ابن بوران بعد نور عن اللعبة خالص.. وجسام محاولش إنه يتبع نور تاني، كان كل هدفه الوصول للسامري والجيش، فمكنش حد مهتم بيه، عارف إنك قلقان على أخوك، بس اطمن كان أقل الناس ضررًا في الحكاية كلها."

أومأت وصمت كلانا لحظات، بعدها قلتُ..

-"طيب! حسب ما فهمت إنك جاي من المستقبل.. حاولت توريني إيه الي هيحصل."

هز رأسه نافيًا حديثي، وحاول التعديل على كلامي كالعادة..

-"عشان أكون دقيق، كل حاجة بدأت فعلًا.. بكرة أخوك هيقابل جسام للمرة الأولى، وهيبدأ رحلتهم مع بعض زي ما شوفتها إنت بالظبط.."

نور الدين سيقابل جسام ويبدأ مشوار طويل في الإيقاع ببلال قاتل شريف وحسن وبعدها سيتعرض أخي لمأزق كبير داخل بيت القرية الملعون، وسيكون على حافة أن يلقى حتفه.

-"أنا ممكن أوقف كل ده، هفهم نور كل حاجة."

-"يبقى مفهمتش حاجة! طالما أنا هنا أدامك.. لازم تفهم إن كل حاجة هتحصل زي ما حصلت، كلنا جزء من اللعبة، كلنا قطع شطرنج.."

-"طيب، بردو إيه دوري في كل الي بيحصل ده!.."

-"عاوزك تكتب.. اكتب كل حاجة.."

-"وده هيفيدك في إيه.."

-"مش مهم تفهم دلوقتي، أو مش مهم تفهم خالص!"

أومأت ولم أحاول طلب المزيد من الفهم عن تلك النقطة، فإن كان كل دوري في تلك اللعبة هو الكتابة فهو أمر ليس بالصعب على ما أظن، خصوصًا أنني رأيتُ كل شيء، فكل ما سأكتبه هو إعادة سرد للأحداث فقط.

-"بس أنا بردو عندي سؤال مهم.."

-"باعتبار أن الكتابة هتفيد بشكل أو بآخر، جسام كده كده هيفشل.. والسامري هيتقتل، ليه مهتم بتغيير كل حاجة حصلت، كده كده إنت انتصرت في النهاية."

-"الضحايا كانوا كتير، وغير كده موت السامري مكنش النهاية، بعدها حصل موقف غريب جدًّا، وكانت ديه المرة الأولى الي أحس فيها فعلًا إني مش فاهم أي حاجة!.."

-"تقصد إيه؟.."

-"لأ، فاضلها مشهد واحد.. كنت متردد أوريهولك عشان أنا أصلًا مش فاهمة!"

-"احكي، أنا عاوز أعرف.."

***

توقف آدم بدراجته البخارية أمام دير الراهبات، وترجَّلَ عنها، وَصَلَ للدير طارقًا الباب فاستجاب له، وانفتح من تلقاء نفسه. دخل آدم مندهشًا أنهم تاركين باب ديرهم مفتوح بهذه الصورة. ولكن المشهد بالداخل كان مرعبًا، أشلاء الراهبات في كل مكان، جميعهم قتلى، الدماء تلطخ الحوائط، فَزِعَ آدم من المنظر الدموي البشع، وشعر بالخوف الشديد من كون أمر اللعنة لم ينتهِ بعد! سمع صرخة مكتومة قادمة من الطابق العلوي فتحرك ناحيتها بخطوات غير ثابتة وجسده بالكامل ينتفض ذُعرًا وخوفًا.

صَعَدَ الدرج نحو الأعلى فسمع حركات شَدٍّ وجذبٍ وصرخة أخرى واضحة المعالم أكثر من سابقتها وعَلِمَ في لحظتها أنها تخص لميس، حينما وصل لغرفتها وجد أحد الملثمين يُلقي بخِنجره في الهواء ثم يُعيدُ التقاطه من ناحية النصل الحادِّ، وضَرَبَ لميس بالمقبض، كان هدفه أن يدخلها في حالة إغماء، وليس القتل كما فَعَلَ ما باقي الراهبات، سقطت لميس أرضًا مغشيًّا عليها، وتحرَّك الملثم ناحية إحدى الخزائن، وأخرج منها ثماني مخطوطات عَلِمَ آدم أنها مخطوطات موسى السامري المفقودة.

لم ينتظر المزيد، وهَربَ آدم لخارِج الدير واستقلَّ دراجته وغادر المكان..

***

سألت آدم..

-"ده الملثم نفسه، الي ظهر مع ابن بوران الفارسي يوم الحرق؟!"

أجابني آدم..

-"أظن.. معرفش!"

-"تفتكر إن القادم أسوأ؟! ممكن يكون أخطر من جسام وابن بوران؟!"

-"ممكن!"

-"بس إنت كده تعتبر نفذت خطة صُهيب وبني القماقم.. يعني إنت ولميس كنتم قطع شطرنج."

-"نسيت أقولك إن لميس تكفلت ببني القماقم.. وأنا قتلت صُهيب!، عاش أكتر من عمره بكتير أوي."

-"إزاي عاش لحد الوقت ده، طالما أصلًا سر الخلود مكتوب بس في مخطوطات موسى السامري بس!"

صَعَقَه السؤال، لم يتوقعه..

–"عندك حق!"

شعرت لأن آدم لم يفكر في هذا الأمر مطلقًا من قبل..

–"يعني؟!"

ضحك ساخرًا من نفسه..

–"واضح إن كان فيه جوانب كتيرة فاتت عليا، جايز لو كنت ركزت أكتر في التفاصيل ديه.. كنت عرفت مين الملثم."

سألته..

–"يعني ممكن يكون صُهيب كان شغال مع حد تاني غير بني القماقم والحد ده هو الي منحه سر الخلود؟! المليم مثلًا؟!"

لم يرد، فعلمت أنه لا يعلم الإجابة، تفوقي عليه في اللحظات الأخيرة منحني بعض الثقة، رأيته مشتتًا شارد الذهن..

–"طيب لو رفض.. ومكتبتش حاجة؟"

قال بعصبية..

–"هجبرك!.. لازم تكتب!"

قطع حديثنا دخول نور الدين مبتسمًا، نظر لآدم..

–"أسف مكنتش أعرف إم معاك حد!"

قبل أن أرد، قال آدم..

-"لا.. أنا ماشي خلاص."

غادر آدم المكان وتركني مع أخي..

وبهذه الأسطر أكون قد انتهيتُ أنا أيضًا من سرد الأحداث كما رأيتُها في أحلامي، أو كما عرضها آدم بدون أي تعديل فيها، عدا الجزء الخاص بي في كتاب الثالوث، لقد حاولتُ جَذْبَ الانتباهِ الأكثر بكون الأمر ليس مجرد رواية، فأقحمتُ كل القرَّاء في الأمر.

لا أعْلَمُ مَن الملثم، ولا أعْلَمُ إن كان الأمرُ قد انتهى أم لا..

تمت

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/AhmedShawkyMoubarak



أنا مَنْ قُمتُ بنحت كل قِطَع هذه اللُّعبة، طالما حاولت الحفاظ عليها والاهتمام بها قطعةً قِطعةً. الشطرنج ليست مجرد لُعبة، الشطرنج هي مُلخَّص الحياة كما رَسَمَه أحكَمُ الحكماء، ابحث عن الانسان ستجده يُمثّلُ إحدى تلك القِطع، أعلمُ أنها تُذكّرُك بالهزيمة المؤلمة، وتُذكّرُك بقبضة العقارب، خيانة لميس أو عاهرة المعبد، تذكرك بالهروب خلف موسى بن عمران وسعي موسى السامري نحو الخلود، تذكرك بمن صَنَعْته خادمًا لك فصارَ سيدَك يوم حررتني منك، لن أُنكر أنك علمتني الكثير، وجعلتني ألتهمُ من تمردك وخبرتك حتى اشتدت ضُلوعي وصار كياني لا يحتاج أحدًا معه. بما أننا على مشارف النهاية -وأنت تعلم- ألا تريد اللعب للمرة الأخيرة؟!

Cover by #ahz_art





الأجزاء السابقة من سلسلة **كش ملك**



دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE